ميخائيل بولغاكوف

بيوض القدر

رواية

ترجمة

ثائر زين الدين

فريد حاتم الشحف






محمد خطاب



بيوض القدر

◆ *بيوض القدر*
◆ ميخائيل بولغاكوف
◆ ترجمة: ثائر زين الدين ـ فريد حاتم الشحف

◆ الطبعة الأولى 2007
◆ *الناشـر : دار الحـوار للنشـر والتـوزيـع*
سـورية ـ اللاذقيـة ـ ص. ب: 1018
هاتف وفاكس: 963 41 422339
البريد الإلكتروني: Soleman@scs-net.org

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار
تصميم الغلاف: ناظم حمدان

ميخائيل بولغاكوف

بيوض القدر

رواية

ترجمة

ثائر زين الدين

فريد حاتم الشحف

دار الحوار

الفصل الأول

سيرة البروفيسور بيرسيكوف

دخل البروفيسور بيرسيكوف المتخصص في علم الحيوان، في الجامعة الحكوميّة الرابعة، ومدير معهد علم الحيوان في موسكو مساء يوم 16 نيسان 1928 مكتَبَهُ في المعهد نفسه، الواقع في شارع غرتسن. أشعلَ الكرةَ الضوئية العلويّة المعقّمة وأخذ يتأمّل.

يجب أن نعدّ هذا المساء «المنحوس» بداية الكارثة المفزعة، مثلما نعد البروفيسور فلاديمير إيباتيتش بيرسيكوف نفسه سببها الأوّل.

كان في الثامنة والخمسين من عمره، ذا رأس جميل، عبقري، ناعم، وأصلع تزيّنُهُ بضع خُصل صفراء تتهدّل علًى جانًبيه، بينما تبرزُ شفته السفلى إلى الأمام. بدأً هذا الوجه البيرسيكوفي[*] عصبياً دوماً، وعلى أنفه الأحمر اتكأت نظّارة قديمة ذات إطار فضّي، تلتمعُ من خلفها عينان صغيرتان. كان طويل القامة ٍيتحدّث بصوتٍ حادٍ ورقيق يشبهُ نقيقَ الضفادع، ومن ميزاتِهِ الخاصة

---

[*] يشتق الروائي صفةً من كنية البروفيسور، وهي في الأصل مأخوذة من مفردة «خوخ»؛ وبالتالي كأنه يقول: «هذا الوجه الخوخي». (المترجمان).

الغريبة ـ في هذا المجال ـ أنه عندما يتكلّم ـ وهو يتكلم بثقة ـ تأخذُ سبّابته اليُمنى شكل الخطّاف، وتظل عيناهُ دائمتي الحركة.

ولعلّ سعة معرفتهِ باختصاصِه، تلك السعة الشاذة! تكمُنُ خلفَ حديثهِ بكثيرٍ من الثقة، وخلفَ ظهور ذلك الخطّاف في وجوهِ محدّثيه.

بينما كان البروفيسور يلتزمُ الصمت على الأغلب حينما يدور الحديثُ في غير مجالِ تخصصهِ، كعلمِ التشريحِ والنباتِ والجغرافيا.

لم يكن البروفيسور يقرأ الجرائد أو يذهب إلى المسرح، وقد هَربت زوجته منه عام 1913، إلى مُدرّب الأوبّرا زيمين، تاركةً لهُ رسالة جاء فيها: «... ضفادِعك تثير فيّ اشمئزازاً غير محتمل، وسأظلُّ طيلة حياتي تعسة بسببها».

بعدها لم يتزوج البروفيسور ولم ينجب أطفالاً.

كان يثور بسرعة، يحبُّ شرب الشاي. يسكن شقّةً في شارع برتيشينغ مؤلفة من خمس غرف، تقطنُ إحداها عجوزٌ متخصّصة في الاقتصاد تدعى ماريّا ستيبانوفا، تعيلُ البروفيسور وتعنى به كمربيّة.

وضعت السلطة المحليّة عام 1919 يدها على ثلاث غرف من غرفِ شقّته، فأعلن أمامَ ماريّا ستيبانوفا: إذا لم يكفّوا عن هذهِ المهازل فسأسافر إلى الخارج.

وما من شكٍ على الإطلاق أن الرجل إذا ما نفّذ قولَه، فسيكون من السهل جداً أن يجدَ عملاً في أي قسمٍ من أقسامِ علم الحيوانِ

في جامعات العالم. لقد كان عالماً من الدرجة الأولى، ولن تجدَ في العالم كلّه رجلاً بمستواه العلمي في مجال تخصصه؛ إلا وليم فيكل في جامعةِ كامبردج، وجياكومو بارتالومبا بيكاري في روما.

كان البروفيسور يقرأ بأربع لغاتٍ بالإضافة إلى الروسيّة، أما الألمانيّة والفرنسيّة فقد كان يتحدّث بهما كالروسيّة نفسها.

لم ينفذ بيرسكوف نيّته في السفر إلى الخارج، مع أن عام 1920 جاء أسوأ بكثير من سابقِهِ؛ تداعت حوادث كثيرة غير سارة، الواحدة تلو الأخرى، فقد بدّلوا اسم شارع نيكيتسكي الكبير ليصبحَ شارع غيرتسن، وتوقّفتْ الساعةُ المحفورة في جدار المبنى الواقع عند تقاطع شارعي غيرتسن وموخوفا، على الحادية عشرة والربع.

وأخيراً قبل أن يتم ترحيل مخلّفات اضطرابات ذلك العام المشؤوم عن أرض معهد علم الحيوان، نفقتْ ثمان عيّنات من صنف ضفادعٍ ممتاز، ثم تلتها خمس عشرة عيّنة من صنفٍ عادي، وأخيراً نفقَ ضفدعٌ من صنفٍ سورينامي نادر.

بعد نفوق الضفادع، كنتيجةٍ لزمرة الأعوام الجرداء الأولى، التي سُمّيت بحق الأعوام البتراء، انتقلَ إلى العالم «الأفضل» حارسُ المعهد الفريد العجوز فلاس، وقد كانت أعوام الفقر تلك سبب موته، أعوامٌ سمّاها بير سيكوف:

ـ أعوام المجاعة!

كانَ العالِمُ محقاً تماماً: وَجَبَ أن يُطْعَمَ فلاس دقيقَ القمح، أمّا الضفادع فكان ينبغي إطعامها دورَ الدقيق، ولما اختفى الأوّل فمنَ

المنطقي أن تختفي الديدان. جَرَّبَ بيرسيكوف أن يُغذّي نماذجه العشرين الباقية على الصراصير، لكنّ الصراصيرَ بدورها اختفت في مكان ما؛ وكأنها أرادتْ أن تُعلنَ موقِفها الرافض للشيوعيّة الحربيّة.

وهكذا اضطرَّ لرمي النماذج الخيرة من ضفادعِهِ في حفرةٍ أُعدّت لهذه الغاية في بهو المعهد.

لا يمكنُ وصفُ التأثير السلبي الذي تركه موتُ الضفادع على بيرسيكوف، ولاسيّما الضفدع السورينامي، ولا ندري لماذا حَمَّل البروفيسور اللجنةَ الشعبيّة للتعليم مسؤوليّة ذلك كاملةً.

قال وهو يقف في الممرّ الفارغ للمعهد، يلبس قبّعته وحذاءه الشتوي، مُخاطباً مساعده إيفانوف، الرجل الرائع ذا اللحية البيضاء:

ـ بيوتر ستيبانوفيتش، إن قتلهم قليلٌ، على فعلتهم تلك. ماذا سيقترفون لاحقاً؟ سيدمّرون المعهد! أليس كذلك؟

أما قتلوا ذلك الضفدع السورينامي الذكر، الفريد من نوعه؟ وكان طولُه يزيدُ على ثلاثة عشر سنتيمتراً!

جاءت الأيام التالية أشد وطأةً، تجمّدت نوافذ المعهد، وكست سطوحها الداخليّة طبقة بيضاء بلّورية. ماتت الأرانبُ والثعالبُ والأسماك جميعاً، وامتنعَ بيرسكوف عن الكلام أياماً متتالية معتصماً بالصمت، ثمّ مرض؛ والتهبت رئتاه، لكنّه لم يمتْ. عندما مثلُ إلى الشفاء بدأ يزور المعهد مرتين في الأسبوع، وهناك في القاعة الدائريّة ـ حيث درجة الحرارة ثابتة عند الخامسة تحت الصفر،

مهما كانت الحرارة في الخارج، دون أن يفهم أحد السبب ـ راحَ بيرسيكوف يقرأ مجموعة من المحاضرات على ثمانية مستمعين فقط، في موضوع: «زواحف المناطق الحارة»، لابساً خلال ذلك قبّعتهُ ووشاحَهُ الصوفي، منتعلاً حذاءَهُ، وواضعاً «السمّاعات» على أذنيه، مُطلقاً من فمهِ بخاراً أبيض. أمّا في الأوقات الباقية فقد آثَرَ الاستلقاء على أريكةٍ في غرفتِهِ الواقعة في شارع برتيشستينك؛ الملأى بالكتبِ حتّى سقفها، كان يَسْعُلُ بين الفينةِ والأخرى تحت غطاء الصوف، مُصطلياً على النار المنبعثةِ من حُطام الكراسي المذهّبة، التي كانت توقدها ماريّا ستيبانوفا، ومتذكّراً ضفدعَه السيرونامي.

لكن لكل شيء نهاية، مضى عام 1920، وتلاه 1921، حتى إذا جاء العام الثالث، بدأت الأمور تسيرُ بصورةٍ معاكسة؛ فقد ظهرَ أولاً ـ في مكانِ فلاس المتوفّى ـ بانكرات حارساً جديداً للمعهد، كان شاباً، وذا هيئةٍ تسمَحُ بتعليق آمال كبيرة عليه. ثم بدؤوا يُدفِئونَ المعهدَ قليلاً. وتمكّن بيرسيكوفُ ـ بعد ذلك ـ بمساعدةِ بانكرات من التقاطِ أربعةَ عشر ضفدعاً طليقاً في منطقة كليازما.

ودبّت الحياةُ في باحاتِ وأروقة المعهد... عام 1923 أخذ بيرسيكوف يُحاضِرُ ثماني مَرَّات في الأسبوع ـ ثلاثاً في المعهد، وخمساً في الجامعة، وفي العام التالي أخذ يقدّم ثلاثَ عشرة محاضرة في المعهد والجامعة والكلّيات العمّالية، وفي عام الـ 25 نالَ قسطاً كبيراً من الشُهرة لأنّه طرد أربعةً وسبعين طالباً من

الامتحان بسبب الزواحف العارية (ذات الجلد)؛ كان يسألُ واحدهم:

ـ كيف لا تعلم بماذا تختلفُ الزواحف العارية عن غيرها من الزواحف؟ هذا ببساطة مضحكٌ أيّها الفتى! لا توجد كِلْيات حوضيّة عند الزواحف العارية. هي مفقودة! عليكَ أن تخجل. أنت على ما يبدو ماركسي؟

ويجيبُ الطالب المطرودُ بصوتٍ خافت:

ـ نعم ماركسي.

فيقولُ البروفيسور بلباقة:

ـ أخرجْ، وعدْ في الخريف القادم لتقديم الامتحان مرّةً أخرى.

ثم يأمر بانكرات بحيويّة:

ـ أدخِلْ الطالب التالي!

عام 1926 عادت الحياةُ تماماً للبروفيسور بيرسيكوف، مثلما تعودُ للكائن البرمائي عندما تهطل أمطار غزيرة، عَقِبَ سنواتٍ طويلةٍ من الجفاف.

كان ذلك عندما باشرت الشركة الأمريكيّة ـ الروسيّة الموحّدة بناءَ خمسة عشر مشروعاً سكنياً، كل منها مؤلفٌ من خمسة عشر طابقاً، عند تقاطع شارعي الجرائد وتڤير، وسط موسكو، وثلاثمائة بناية عمّالية تضم الواحدة ثماني شقق سكنيّة، فقُضِيَ بذلك على أزمة السكن المضحكة المبكية، التي عانى منها سكان موسكو خلال الأعوام 1919 ـ 1925.

على العموم كان عاماً رائعاً في حياة بيرسيكوف، كم كان يفركُ يديهِ ضاحكاً مسروراً كلّما تذكّرَ كيف حشرَ نفسه مع ماريّا إيفانوفنا في غرفتين صغيرتين، في حين أعيدت اليوم الغرف الخمس إليه. عادَ إلى حياة الرحابة والسعة. رتّب ألفين وخمسمئة كتابٍ في مكتبته من جديد، أعادَ توزيع الحيوانات المحنّطة، والمستحضرات. أشعلَ مصباحاً أخضر على طاولةِ مكتبه.

أصبَحَ التعرُّف إلى المعهد ـ في العام نفسه ـ صعباً جداً: طلوهُ بدهان «بيج». مدّوا أنبوبَ ماءٍ خاص إلى غرفة الزواحف، بدّلوا الزجاج كلّه بالمرايا، وأحضروا خمسةَ مُجْهراتٍ جديدة، وطاولات زجاجيّة للمستحضرات، وكرات إنارةً تحتوي ألفي مصباح مع أضواء منعكسة، ومرايا عاكسة، وخزائن للمتحف.

انبعثَ بيرسيكوف من جديد، وعرفَ العالَمُ كلّه ذلك فجأةً عندما صدر له كتيّب بعنوان: «مرّة أخرى: مسألةُ تكاثر الرخويات» وذلك في كانون الأول من عام 1926، ووقع الكتيّب في 126 صفحة، عن الإزفسيتا، الجامعة الرابعة.

وتلا ذلك في العام التالي صدور مؤلّفٍ ضخمٍ في 350 صفحة، تُرجِمَ إلى ست لغاتٍ بما فيها اليابانية:

«علم أجنّة الضفادع الصغيرة والمتوسطة والكبيرة» الثمن: 3 روبلات. إصدار: دار النشر الحكوميّة «غوسيزدات».

أما عام 1928، فقد حدث شيءٌ مرعبٌ، غير عادي...

الفصل الثاني

خصلة ملونة

وهكذا أشعلَ البروفيسور الكرةَ الضوئيّة وأخذ يتأمّل. أنارَ المصباح العاكس فوق طاولة التجارب الطويلة، وارتدى مريلته البيضاء. ثمّ قرعَ الطاولة بأداةٍ جراحيّة ما...

أكثرُ المركبات الميكانيكيّة، البالغة ثلاثين ألفاً، والتي كانت تجوب موسكو عام 1928 كانت تمرُّ من شارع غيرتسن صارّةً بعجلاتها فوق السكك الحديديّة الصقيلة، وفي كل دقيقة كانت التراموايات 16 و22 و48 و53 تعبر شارع غيرتسن، إلى شارع موخوفوي مُحدثةً صريراً وهديراً مدويين. بريقُ الأضواء الملوّنة انهمرَ على مرايا المكتب الزجاجيّة، والمنجل الهلالي الشاحب تراءى ضبابيّاً، عالياً وبعيداً بجانب القبّة الثقيلة المظلمة لكنيسة المسيح. كل هذا الضجيج وتلك الحركة في ربيع موسكو، لم يثيرا أدنى اهتمامٍ عند البروفيسور بيرسيكوف، الذي جلسَ على كرسيّه الصغير اللولبي ذي الأرجل الثلاث، وأخذ يفتلُ مفصل حامل

عدسات المُهجر التسيسكي* الممتاز بأصابع مسودّة جرّاء التبغ بعد أن وضعَ في الجهاز عيّنة عاديّة غير ملوّنة من الأميبيا الطازجة.

انفتح الباب في اللحظة التي بدّل فيها بيرسيكوف درجةَ التكبير من خمسة آلاف مرّة إلى عشرة آلاف. وظهرت صدريّة جلديّة ولحية حادة ثم علا صوت المساعد مُنادياً:

ـ فلاديمير إيباتيتش. مددّتُ الغشاء المُغطّي للأمعاء، ألا تريد أن تنظر؟

نهض بيرسيكوف عن كرسيّه بحيويّة، تاركاً عُنق المجهر في منتصف دورته. دخل مكتب معاونه وهو يدحو بين يديه لفافةَ تبغ. بدا على الطاولة الزجاجيّ ضفدع يعاني سكرات الموت، جامد من شدّة الألم والخوف، معلّقٌ على أنبوبٍ مخبري، وأحشاؤه اللزجة الشفّافة مندلقة من بطنهِ المُدمّى، ومتوضّعة تحت عدسة المجهر. قال بيرسيكوف مقرّباً عينيه من فتحة المنظار:

ـ جيد جداً.

بدا وكأن أمراً شديد الأهميّة يدفعهما إلى التحديق في الغشاء، الذي يغطّي أمعاء الضفدع، كان كل شيء واضحاً كأنك تنظُرُ في كفّك! كراتُ دمٍ تتسارعُ في شرايين هذا المخلوق الصغير. نسي بيرسيكوف أحادي الخليّة تحت عدسة المجهر في مكتبه ولساعةٍ ونصف تَناوبَ ومعاونه التحديق في أمعاء الضفدع، وتبادلا بحيويّةٍ كلماتٍ بسيطةً وميّتةً.

---

* نسبة للعالم الألماني تسيسك، مخترع المجهر / المترجمان/.

أخيراً رفعَ بيرسيكوف عينَهُ عن أنبوبة المجهر مُعلناً:

ـ الدمُ ينحَل، لا يمكن فعل شيء.

حرّك الضفدعُ رأسه بصعوبةٍ بالغة، وتراءت في عينيهِ كلمات واضحة: «أنتما أيّها الوغدان! ماذا......».

نهضَ بيرسيكوف محركاً رجليه الخدرتين بالتناوب، وعادَ إلى مكتبهِ.

تثاءَبَ، فركَ عينيهِ، المحمرّتين دائماً، ثم جلس على كرسيّه الصغير وحدّق في المجهر، واضعاً يده على عنقه وهامّاً بفتل البرغي، لكنّه توقّف فجأةً، شاهدتْ عينُهُ اليُمنى قرصاً أبيضَ مُبْهماً، عليه أحاديّات خليّة غامضة، وفي وسطِهِ توضّعت خصلة ملوّنة، أشبه ما تكون بخصلةِ شعرٍ نسائية.

هذه الخصلة شاهدها بيرسيكوف والمئات من طلابه مرّات عديدة، لكن أحداً لم يُعرها أي اهتمام، وما كان من داعٍ لذلك، فتلك الحزمة من الضوء الملوّن كانت تعيق المراقبة فحسب، وتعني أن العيّنة ليست في مركز مجال العدسات؛ لذلك كانوا يزيلونها بدورةٍ واحدة للبرغي اللولبي، دون أسفٍ، مضيئين بذلك المجال المُراقَب بضوءٍ أبيض متساو. أصابعُ عالم الحيوان الطويلة أمسكت البرغي بإحكام، وفجأةً ارتعشتْ وتراختْ عنه، بسبب ما رأتهُ العين اليُمنى لبيرسيكوف، أصبحَ شديد الحذر، وتملّكه شيءٌ من الهلع والتعجّب؛ ها هو ذا كائن وسيط من جبال الجمهوريّة، ليسَ بلا فائدة على العموم، يقبعُ تحت عين المجهر.

لا! جلسَ البروفيسور بيرسيكوف. حياةٌ كاملة من التفكير تركّزت على رؤية العين اليُمنى. ثم خمس دقائق من الصمت الرهيب والكائن الأرقى يراقب الكائن الأدنى، عين البروفيسور متوتّرة ومضطربة فوق المخلوق المتوضّع في العيّنة وخارج بؤرة المجهر.

بدأ الصمتُ يخيّم على المكان، غفا بانكرات في غرفة الرُدهة. ولمرّةٍ واحدة فقط أصدر زجاجُ الأبواب على السُلّم صوتاً موسيقيّاً ناعماً، كان هذا إيفانوف يغلقُ باب مكتبهِ، ثمّ تلا ذلك صريرُ باب المدخل الخارجي.

فجأةً ارتفعَ صوتُ البروفيسور يسأل؛ دون أن يُعرَف المسؤول:

ـ ما هذا؟ أنا لا أفهمُ شيئاً...

عَبَرَتْ شاحنةٌ متأخّرة شارع غيرتسن مُحدثةً اهتزازاً في جدران المعهد القديم، وارتجفَ فوق الطاولة فنجان زجاجيٌّ مسطح يعلوهُ ملقط؛ اصفرَّ وجه البروفيسور، وانحنى فوق المجهر يحميه بيده؛ تماماً مثلما تفعلُ أمٌّ بأطفالها عندما يتهددهم خطرٌ ما.

لم يعد بالإمكان الحديث عن احتمال إدارةِ بيرسيكوف برغي مُعايرة الرؤيا.. آه لا. كان يخافُ أن تحرّك قوّةٌ ما خارجة عن إرادتِهِ، ما يشاهدهُ الآن. بزغَ صباحُ أبيض صافٍ، وأشعةُ شمس ذهبيّة قسمت جناحي المعهد، عندها تركَ البروفيسور المجهر وتوجّه على رجلين مُخدّرتين إلى النافذة، ضغط بإصبعه المُرتعشة زرّ الستارة، فانسدلت سوداء محكمة مانعةً الصباحَ من التسلّل، وسرت في المكتب ظلمةٌ علميّة جادة، باعَدَ بيرسيكوف المتقع

واللُهم رجليه، وقالَ محملِقاً في أرض المكتب بعينين دامعتين، مُخاطباً الضفادع:

ـ كيف حصلَ ذلك؟ هذا فظيع! فظيعٌ أيّها السادة!

لكن الضفادعُ لم تجبه، فقد غطّت في النوم.

صمتَ. نهضَ واقتربَ من زر الستارة، رفعها وأطفأ الأضواء كلها، ثمّ نظر في المجهر، فأصبح وجهُهُ متوتراً، حرّكَ حاجبيه الكثّين المصفرّين، وهمس:

ـ أوهو.. أوهو.. اختفى، أفهمُ ذلك.

نهضَ، ونظر بجنونٍ وإلهامٍ إلى الكرة الضوئية المطفأة فوق رأسهِ، ثمّ تمتمَ:

ـ هذا بسيط.

أسدلَ الستائر من جديد. وأشعلَ الكرة الضوئيّة، ثمَّ عادَ وحدّقَ في أنبوبة المجهر، رفع إصبعه بسعادة، كشّر بوحشيّة وقال بنبرةٍ احتفاليّة جدّية:

ـ سأمسك به... سأمسك به. بمساعدة الشمس.

ارتفعت الستائر مرةً أخرى، تعالت الشمس، وها هي ذي تسطع على جدران المعهد، وعلى السكة الحديديّة الممتدّة على طول شارع غيرتسن. نظر البروفيسور في النافذة، مُحاولاً أن يتوقّع أين ستكون الشمس عند الظهر، راحَ يقتربُ تارةً من النافذة، ويبتعد أخرى مطبطباً بقدميه على الأرض، ثمّ ألقى ببطنه على حافتها وراحَ يتأمّل.

اندفعَ ينفذ عملاً غامضاً ومهمّاً، صَهرَ قطعةَ شمعٍ على اللهب الأزرق للفتيل، بعد أن غطّى المجهر بقمعٍ زجاجي كبير، وألصقَ بالشمع حافة القمع بالطاولة، ثمّ ضغطَ بإبهامه نقاط الشمع المُنصهرة. أطفأ الفتيل، خَرَجَ وأقفل باب المكتب بالقفل الإنكليزي.

ممرُّ المعهد نصف مضاء. وصلَ إلى غرفة بانكرات، قرع الباب طويلاً دون جدوى، وأخيراً سَمِعَ خلف الباب قرقرةً تشبه قرقرة كلبٍ مربوطٍ بالسلاسل، يخرخرُ ويحشرجُ، ثمّ ظهرَ بانكرات بسروال مخطط، ذي أربطة، ونظرَ بعينين مستغربتين نصف نائمتينً إلى البروفيسور.

قال بيرسيكوف وهو يحدّق من فوق نظّاراته ببانكرات من رأسه حتى قدميه:

ـ بانكرات، اعذرني لأنني أيقظتُك. يا صديقي العزيز يُمْنَعُ صباح اليوم الدخولُ إلى مكتبي، لقد تركتُ تجربةً يجب ألا تتحرّك. مفهومّ؟

ـ أرؤوو.. وو.. مفـ... مفـ... مفهوم.

أجابَ بانكرات دون أن يفهمَ شيئاً وتابع تمايله وهرهرته! همس عالم الحيوان وهو يلْكُمُ بانكرات برقّةٍ على أضلاعه:

ـ لا، اسمعْ، استيقظْ، إنني أقفلتُ المكتب، ولا حاجة لتنظيفه قبل أن أحضر. مفهوم؟

أدّت لكمة البروفيسور الرقيقة إلى ظهور إمارات الفزع على وجه بانكرات وحاولَ أن يفهم ما يحدث، ثم أجابَ بصوتٍ أبح:

ـ سمعاً وطاعة.

ـ ممتاز. اذهب وتابع نومك.

استدار بانكرات، واختفى خلف الباب، ثمّ استلقى على سريره، أمّا البروفيسور فقد أخذ يرتدي ثيابه في البهو: لبسَ المعطف الرصاصي الصيفي، والقبّعة الخفيفة، ثمّ تذكّر المنظر تحت عدسة المجهر، مُحدّقاً في حذائهِ ـ وهو يهمّ بانتعاله لعدّة ثوانٍ، كما لو أنّه يراه للمرّة الأولى. انتعلَ الفردةَ اليسرى بقدمه اليمنىً، لكن القدم لم تدخل.

قال العالم:

ـ يا للمصادفة العجيبة، لو لَم أُسْتَدعَ ما كنتُ لاحظتُه، لكن ما الذي سيحدثُ الآن؟ الشيطان وحده يعرف ما الذي سيحدث..!

ابتسم البروفيسور ساخراً، ثمّ ضيّق عينيه محدّقاً في الحذاء، نزع الفردة اليُسرى، وحشا قدمه اليمنى في الفردة اليمنى:

ـ يا إلهي! من الصعب تصوّر النتائج التي ستنجم عن ذلك..

قذفَ البروفيسور بازدراء فردة الحذاء اليسرى، ربّما لأنها رفضت من قبلُ أن تستوعب قدمه اليمنى.. مشى باتجاه الباب الخارجي، هناك أضاع منديله، بينما كان يبحث عن علبة أعواد الثقاب في جيوبه دون جدوى. خرج وأغلق وراءَهُ الباب الثقيل.

في الشارع سار وئيداً ولفافةُ التبغ في فمه غير مُشتعلة، لم يلتقِ أحداً في طريقه حتى بلغ الكنيسة، حيّا برأسه القبّة الذهبيّة التي كانت الشمس تضيئها من جهةٍ واحدة.

حدَّث البروفيسور نفسه:

ـ كيفَ لم أرَهُ من قبل؟ يا لها من مُصادفة!

ثم انتبه إلى أنه ينقلُ فردةَ حذاءٍ واحدة، انحنى وفكّر:

ـ تفو.. مجنون! ما العمل الآن؟ هل أعود إلى بانكرات؟ لا من الصعب إيقاظه. أأرمي الحذاء اللعين؟ لا، ما زال بحالةٍ جيّدة، سأحمله إذاً. نزعَهُ وحمله ممتعضاً.

مرّت سيارةٌ قديمة من شارع برتشستنيك تُقلُّ ثلاثة أشخاص، اثنان منهم في حالة سُكر، على ركبهم تجلسُ امرأة بكامل زينتها، ترتدي سروالاً حريريّاً «مُوضة» عام 1928.

صاحت المرأة بصوت عالٍ أبح:

ـ آخ أيّها الأب، هل شربت خمراً بثمن فردة الحذاء الأخرى؟

قالَ السكير الذي يجلس إلى الجهة اليُسرى:

ـ شرب العجوز الخمرة على ما يبدو في «الكازار».

أخرج السكير الآخر رأسه من نافذة السيارة وصاح:

– أيّها الوالد، هل الحانة الليليّة في شارع فولخونك تستقبل الزبائن؟ سنذهب إليها إذاً!

نظر البروفيسور إليهم بحنق من فوق نظّارته، بصق السيجارة من فمه، وفي اللحظة نفسها نسيَ وجودَهم تماماً.

على بولفار برتشستنيك ظهرت بقعةٌ من ضياء الشمس، وبدأت قبّة كنيسة المسيح تتوهّج. لقد بزغت الشمسُ تماماً.

الفصل الثالث

بيرسيكوف يمسكُ بالهدف

كان الأمرُ على النحو التالي: عندما قرّب البروفيسور عينَهُ العبقريّة من عدسة المجهر، لفت انتباهَهُ ولأوّل مرّة شعاعٌ تميّز بشكل ساطعٍ وحادٍ ضمن خصلة متعدّدة الألوان، شعاعٌ ذو لون أحمر فاتحٍ، يخرجُ من تلك الخصلة، صغيراً حاداً كالإبرة.

هذه المصادفة غير السارة أدّت إلى إبقاء عدسة المجهر مصوّبة عدّة ثوان على الشعاع.

لاحظ البروفيسور أن ما نتجَ عن هذا الشعاع أكثر أهميّة بألف مرّة من الشعاع بحد ذاته، إن هذا الوليد غير الأصيل، الذي انبثقَ فجأةً بسبب حركة المرآة وعدسة المجهر ـ لحظةَ نادى المساعدُ البروفيسور واستدعاه ـ جعل أحاديات الخليّة تقبعُ ساعةً ونصف تحت تأثيره، فبينما كانت بعض تلك الأحاديّات الموجودة في منطقةٍ لم يطلها تأثير الشعاع تتحرّك بصعوبةٍ بالغةٍ وبطءٍ شديد، كانت منطقة سقوط الشعاع الأحمر تشهدُ ظواهر غريبة، لقد راحت تضجُّ بالحياة: بدأت أحاديّات الخليّة الرماديّة تُنتجُ كاذبات

الأرجل. وتلك بدورها تندفع بقوّة للتمركز في المقطع الأحمر، حيث تنبعث الحياة فيها - بكل ما في الأمر من سحر وغرابة - قوّة ما كانت تعيدُ الروح إلى تلك الكائنات التي تندفعُ قطعاناً وأسراباً لتأخذ مكانها في بقعة سقوط الشعاع الأحمر، وهناك - وبشكل مذهل - تبدأ بالتكاثر، خارقةً كل القوانين المعروفة لبيرسيكوف...

كانت تتبرعَمُ بسرعة البرق أمام عينيه، ثم تتجزّأ إلى أجزاء، فيتحوّل الواحد منها إلى كائن جديدٍ خلال ثانيتين، وإن هي إلا لحظات حتى تنمو هذه الكائنات وتنضج، لا هدف لها إلا تقديم جيل جديد. فإذا المكان يصبح ضيقاً جداً، ليس فقط البقعة الحمراء بل القرص كلّه، عندئذٍ ينشأ صراعٌ حتمي، تهاجم المواليدُ الجديدةُ بعضها بعضاً، فيمزّق الواحد الآخر، وتتناثر جُثث الذين استشهدوا من أجل البقاء بين المواليد الجديدة! انتصرَ الأقوى والأفضل! وهذه الزمرة كانت مخيفة لأسباب عدّة:

أولاً - حجومها تفوق بمرّتين حجوم أحاديّات الخليّة العاديّة.

ثانياً - تميّزت بشراسةٍ شديدة، وسرعة حركة جامحة.

والأمر الثالث أن أرجلها الكاذبة كانت أطول من أرجل أحادي الخليّة العادي، واستخدمتْ تلك الأرجل - ودون مبالغة! - كما يستخدمُ الأخطبوط أرجله.

تابع البروفيسور في الليلة الثانية دراسة أحاديات الخليّة، ناعساً وشاحباً، دون أن يتناول طعاماً، مُحاولاً استعادةَ حيويّتِهِ الذابلة بالسجائر الثخينة الملفوفة يدويّاً.

في اليوم الثالث انتقلَ إلى دراسة العامل الأساس في حدوثِ الظاهرة، وهو الشعاع الأحمر.

كان الغاز يشتعلُ ببطءٍ في السخّانة المخبريّة الصغيرة، بدأت الحركة تعجُّ في الشارع من جديد. أسندَ البروفيسور المُتَسمِّم بعشرات السجائر ظهرهُ غلى الكرسي، وأسبل أجفانه الذابلة:

– نعم، أصبح الآن كل شيء واضحاً. الشعاع بعثَ بتلك الكائنات الحياة! ما من أحدٍ اكتشفَهُ وَدَرسَهُ من قبل.

الأمر الأول الذي لابدّ من توضيحه تماماً هو مصدر هذا الشعاع، هل هو موجودٌ في ضوء الشمس أيضاً، أم أنه يصدرُ عن الكهرباء فحسب! وخلال الليلة التالية انكشفت الحقيقة، التقطَ البروفيسور الشعاعَ في ثلاثةِ مجاهر، ولم يكن شعاعُ الشمس سبباً في ذلك؛ فأوجز المسألة:

ـ ينبغي الاعتقاد أن الشعاع المطلوب غير موجود في ضياء الشمس وأطيافه.. إحم.. إحم، ولذلك يمكن استخلاصُهُ وإضافتُهُ من النور الكهربائي.

حدّق بمحبّة في الكرة الضوئيّة العلويّة، ثم استدعى مساعده إلى مكتبه، أخبرهُ بكل ما حدث وجعله يرى أحاديّات الخليّة..

أصيبَ الأستاذ المساعد إيفانوف بالدهشة، وبدا مصعوقاً تماماً: كيف يمكن لهذا الشيء البسيط، هذا السهم الدقيق ألاّ يلاحظ من قبلُ؟ ألا ينتبه لوجوده أحد.. حتى ولا هو إيفانوف! فليأخذنا الشيطان! حقيقةً هذه ظاهرة مدهشة...

رفع إيفانوف صوتَهُ وهو يضعُ عينَهُ على العدسة العليا للمجهر:

– أنظر فلاديمير إيباتيتش ماذا يحدث! إنّها تتكاثر أمام عينيّ أنظر.. أنظر.

أجاب بيرسيكوف بارتياح:

- لقد راقبتُها لثلاثة أيام متتالية.

ودار بين العالمين حديثٌ أدّى إلى النتيجة التالية:

يجهّز الأستاذ المُساعد إيفانوف حُجرةً اختباريّة مُحكمة، مُزوّدة بالمرايا والعدسات يمكنها إنتاجُ شعاعٍ واسعٍ عريض دون استخدام المجهر.

بدا إيفانوف واثقاً تماماً من أن مهمّته لن تكون صعبة، ولم يخالج بيرسيكوف أدنى شك في أن الشعاع المطلوب سيتم توليدُهُ.

وهكذا حصلت عمليّة تكامليّة بسيطة، وقد قال بيرسيكوف مقتنعاً بضرورة العمل المشترك:

- إنني، بيتر ستيبانوفيتش، عندما أنشرُ الاكتشاف سأكتبُ أنك أنت قمت بتصميم الحجرات المُحكمة.

- أو.. ليسَ الأمرُ مهمّاً.. مع أنه طبعاً...

وهكذا بدأُ العمل المُشترك. ومنذ ذلك الحين كان هاجس إيفانوف الوحيد هو الشعاع، بينما تابعَ بيرسيكوف مراقبة تلك الكائنات وما يحدثُ لها تحت عدسة المجهر ليل نهار، بالرغم مما يعانيه من إرهاق ونقصان في الوزن.

انهمك إيفانوف في العملً ضمن قسم الفيزياء المتلألئ بالمصابيح. يركب العدسات والمرايا وينزعُ منها ما لا حاجة له، يساعدهُ في ذلك ميكانيكي مختص.

وحين دعت الحاجة أُرسلَ لبيرسيكوف من ألمانيا ثلاثة طرودٍ تحتوي مرايا مقعّرة الوجهين، وأخرى مُحدّبة الوجهين، وزجاجاً مصقولاً مقعّراً ومُحدّباً، كل ذلك بعد تقديم كتابٍ إلى اللجنة التعليميّة طُلبت فيه تلك المواد.

وانتهى الأمر إلى تمكّن إيفانوف من تجهيز حُجرةٍ تنتجُ الشعاع الأحمر المطلوب، والحق أن الشعاع المولّد، أُنتجَ ببراعة، وخرج حاداً قوياً، ثخيناً بقطر بلغ أربعةَ سنتيمترات.

نُقلتْ الحجرة فوراً إلى مكتب بيرسيكوف وذلك في الأوّل من حزيران، فبدأ العالِمُ تجاربه بلهفة، وضع بدايةً بيوض الضفادع تحت الشعاع، فإذا بالتجربة تُعطي نتائج رائعة: خلال يومين فقست آلاف الشراغيف ـ لكن هذا شيء بسيط!! ـ خلال 24 ساعة نمت هذه الشراغيف وأصبحت ضفادع مكتملة، شريرة وشرهة للغاية، نصفها التهمَ النصف الآخر، وأخذت الضفادعُ الباقية على قيد الحياة تبيض بكثرة ودون مواسم أو أوقات مُحدّدة. وخلال يومين أنتجتْ جيلاً جديداً بأعداد لا تُحصى ودون تدخّل الشعاع هذه المرّة.

بدأت الضفادع تزحف خارجةً من مكتب العالم، وانتشرتْ بصورةٍ مخيفة في المعهد كلّه، في ساحاتِهِ وممرّاته، ومكاتبه، تنقُّ كجوقة، بأصواتٍ عالية، كما لو أنها في مستنقع.

الحارسُ بانكرات الذي كان يخشى بيرسيكوف جَهاراً، أخذ يشعُرُ بفزعٍ مميت، وأحس البروفيسور نفسه بعد أسبوع أنّه يعبَث! امتلأ المعهدُ برائحة الإيتير والبوتاسيوم التي أوشكت تقتلُ بانكرات حين نزع كمّامته قبل الوقت المناسب.

وتمكّنوا أخيراً من القضاء على جيل المستنقع بالسموم، ثمّ بدّلوا هواء المكاتب والمخابر.

قال بيرسيكوف لإيفانوف:

– هل تعلم بيتر ستيبانوفيش أن تأثير الشعاع على الديتروبلازم، وعلى تأثير خليّة البيضة تأثيرٌ مدهش؟

قاطع إيفانوف المتزن والهادئ حتى البرود البروفيسور بنبرةٍ غير عاديّة:

– فلاديمير إيباتيتش: لماذا تناقشُ مسائل صغيرة مثل الديتروبلازم، سأقول مباشرةً: أنتم اكتشفتم أمراً لم يُسْمَعْ بمثله من قبل، ثمّ حارَ إيفانوف بوصف الحادث، لكنه تابع:

– أيها البوفيسور بيرسيكوف أنتم اكتشفتم شعاع الحياة! احمرّت قليلاً وجنتا بيرسيكوف الشاحبتان غير المحلوقتين وتمتم قائلاً:

– لا.. لـ.. ا.. ل.

تابع إيفانوف:

– ستتمتعُ مستقبلاً بشهرةٍ غير عاديّة؛ إن التفكير بذلك يُصيبني بالدوار - وتابع بحماسةٍ - فلاديمير إيباتيتش، بطل «ويلس» مقارنةً بك لا يساوي شيئاً.. أمّا أنا فقد ظننت أنها مجرد حكايات: هل تذكّرتَ روايتَهُ «غذاء الآلهة»؟

أجابَ بيرسيكوف:

– هل هي رواية؟

– يا إلهي، بالطبع، وهي مشهورة!

أجاب بيرسيكوف:

– نسيتُها، أذكرُ أنني قرأتُها، ولكنني نسيتُها.

– كيف لا تتذكّر ـ ورفع إيفانوف عن الطاولة الزجاجيّة ضفدعاً ذا حجمٍ غير معقول، قبض عليه من إحدى رجليه، كانت بطنه منتفخةً، وتعابير وجهِهِ شريرة حتى بعد موته ـ هذه هي العجائب!.

الفصل الرابع

دروزدوفا زوجة القس

الربُ يعلمُ هل كان إيفانوف هو المذنب، أم أن الأخبار المثيرة تنتقلُ مع الهواء من تلقاء نفسها. فجأةً بدأ الحديث يدورُ في موسكو الضخمة الصاخبة بالحياة عن الشُعاع وعن البروفيسور بيرسيكوف، بصورةٍ سطحيّة وغامضة.

راح النبأ عن الاكتشاف العجيب يقفزُ في أرجاء العاصمة البرّاقة، مثل طير جرحته بندقيّة صيد، يختفي ثمّ يظهر، وبقي الحال كذلك حتىً أواسط تموز، يوم ظهرَ خبرٌ صغير في الصفحة العشرين من صحيفة «إزفيستيا» يُعالج حكاية الشعاع تحت عنوان «أخبار العلم والتقنيّة». قيل بّصوتٍ خافت: إنَّ بروفيسوراً معروفاً في الجامعة الرابعة اخترعَ شعاعاً يرفَعُ من النشاط الحيوي للكائنات الصغيرة إلى درجةٍ كبيرة، وهذا الشعاع ما يزال بحاجة للبحث. وبالطبع كتب اسم البروفيسور مُحرَّفاً: «بيفسيكوف».

أحضر إيفانوف الجريدة إلى بيرسيكوف وجعله يقرأ الخبر:

تمتمَ البروفيسور وهو ينقل الحُجرة المُحكمة من المكتب:

- «بيفسيكوف». من أين يعرف هؤلاء المهرّجون كل شيء؟

وهيهات لهذه الكنية المحرّفة أن تنقذ البروفيسور من المتطفّلين، لقد بدؤوا في اليوم التالي يفسدون حياته.

ظهر بانكرات في المكتب، بعد أن قرع الباب، قدّم لبيرسيكوف بطاقة تعريفٍ فاخرة، تشبه أطلساً لكثرةِ ما كتبَ عليها.

قالَ بانكرات بصوتٍ خافت:

- إنّه محلّي.

على البطاقة طبعتْ بخطٍ رائع الكلمات التالية:

ألفريد أركاديفيتش

برونسكي

موظف في المجلات الموسكوفيّة: «النور الأحمر»

«الفليفلة الحمراء»، «المجلّة الحمراء»، «الكشّاف الأحمر»

وصحيفة «موسكو المسائية الحمراء»

قال بيرسيكوف بنبرة حادة وهو يرمي البطاقة تحت الطاولة:

- اطردهُ إلى جهنّم.

خرج بانكرات ليعودَ بعد خمس دقائق بوجه مُعذّبٍ، حاملاً نسخة ثانية من البطاقة نفسها.

صرَّ بيرسيكوف على أسنانه، وأصبح مخيفاً، قال:

- هل تهزأ بي؟

أجاب بانكرات شاحباً:

– يقول إنه من الجامعة التربويّة.

سحب بيرسيكوف البطاقة بقوّة، كادت جرّاءها تنقسم نصفين، ورمى الملقط من يده الأخرى فوق الطاولة، على البطاقة كُتبَ بخطٍ رديء: «أرجو أيُّها البروفيسور المحترم وجداً أن تعذرني، وأن تستقبلني لثلاث دقائق فقط، لعمل اجتماعي. موظف المجلّة الساخرة «الغراب الأحمر» - الصادرة عن الجامعة التربويّة الحكوميّة.

قال بيرسيكوف مختنقاً:

– دعهُ يدخل.

وانزلقَ من خلفِ ظهر بانكرات شابٌ، ذو وجهٍ ناعمٍ حليق مدهون، حاجباهُ المرفوعان إلى أعلى بشكل دائم كرجلٍ صينيٍ يثيران الدهشة، وتحتهما عينان زرقاوان لا تحدّقان إطلاقاً في وجه محدّثه.

كان الشاب يلبسُ ثياباً عصريّة، جاكيتاً طويلاً حتى الركة، سروالاً برجلين واسعتين، وينتعل حذاءً لمّاعاً يشبه الخف، أمّا في يديه فقد حَمَلَ عصاً وقبّعة ذات نهاية علوية حادة، ودفتراً صغيراً.

سأله بيرسيكوف بنبرةٍ جعلت بانكرات يفرُّ إلى الخارج مُسرعاً.

– ما الذي تريدهُ؟ أما قيل لك إنني مشغول؟

وعوضاً عن الإجابة انحنى الشابُ للبروفيسور مرتين إلى اليمين واليسار ثمّ نقّل عينيهِ في جوانب الكتب، ووضع إشاراتٍ ما في دفتره.

قال البروفيسور بامتعاض وهو يحاولُ أن يثبّت عينيهِ في عيني الضيف دون نتيجة:

– إنني مشغول!

وتكلم الشابُ أخيراً بصوتٍ رقيق:

– أرجوك ألف مرّة أيّها البروفيسور المحترم أن تعذرني لأنني آخذ من وقتكم الثمين، لكن نبأ اكتشافكم العالمي، الذي ذاع سيطه في أرجاء المعمورة، فرضَ على مجلتنا أن تطلب منكم توضيحاً ما.

شحبَ وجه بيرسيكوف وصاح بقرف:

– أيّةُ توضيحات لأرجاء المعمورة؟ لستُ مُلزماً بتقديم شيء.. وما من شيء أقدّمه أساساً.. أنا مشغول.. مشغول بشكل مخيف.

سأل الشابُ بلطفٍ زائد وهو يضعُ في دفترهِ إشارةً جديدة:

– فيمَ تبحثون إذاً؟

– أنا.. هل؟ أتريد نشرَ أية معلومات!

أجاب الشاب بعد أن كتبَ شيئاً ما في مفكّرتِهِ:

– نعم.

– أولاً: لا أريدُ نشر أية معلومات قبل أن أكمل عملي، وخاصة في صحافتكم. ثانياً: كيف تعرفون كل ذلك؟

وشعر البروفيسور أنه يفقد أعصابه.

– أصحيح أنكم اخترعتم شعاع الحياة الجديدة؟

احتدّ البروفيسور:

– أي شعاع، وأية حياة جديدة؟ بماذا تهذر، الشعاع الذي تتحدّث عنه لم أنتهِ من دراسته بعد، وما من شيءٍ مؤكّد، المهم أنه يزيد من نشاط البروتوبلازما...

وسأل الشابَ بلهفة وتسرّع:

– كم مرّة يزيد من نشاط البروتوبلازما؟

وفقدَ بيرسيكوف صوابه «يا له من نموذج. الشيطان وحده يعرف كنهه!».

– ما هذه الأسئلة الضيّقة الأفق؟ لنفترض مثلاً ألف مرّة!

والتمعت في عيني الشاب سعادة وحشيّة:

– هل يؤدي ذلك إلى إنتاج كائنات حيّة ضخمة؟

– لا شيء من هذا القبيل، لكن يجب القول إن الكائنات التي حصلتُ عليها أكبر من الطبيعيّة، لكنها تمتازُ بخصائص جديدة، غير أن المهم هنا ليس الحجم، بل سرعة التكاثر العالية.

قال بيرسيكوف ما قاله بالرغم من شعوره بالانزعاج، ثمّ ارتعبَ حين لاحظ أن الفتى عبّأ صفحةً كاملة، وانتقلَ إلى غيرها.

– هل تسجّل كل هذا الكلام؟!

استسلمَ بيرسيكوف وشعر أنه أصبح في يدي هذا الشاب، فتابع بيأس:

– ماذا كتبت؟

– أصحيحٌ أن بيوض الضفادع يمكن أن تتحوّل خلال يومين إلى مليوني ضفدع أو أكثر؟

صاح بيرسيكوف من جديد:

- من كم بيضة؟ هل شاهدتَ من قبل بيضة.. لنقلْ بيضة ضفدع؟!

سأل الشاب دون أدنى شعور بالحيرةِ أو الارتباك:

- من نصف رطل؟

تضرّج وجه العالم بالحمرة وقال:

- من يقيس في العلم بهذه الطريقة؟ تفو! عمّ تتكلّم؟

طبعاً لو استطعنا أن نعالج نصف رطل من بيض الضفادع فعندها.. يا للشيطان، يمكن أن يكون عدد الضفادع هائلاً...

لمعتْ عينا الشاب لمعاناً ماسياً، وقلب صفحةً أخرى:

- أصحيحٌ أن اكتشافكم هذا سيحدثُ انقلاباً ـ على مستوى العالم ـ في علم الحيوان؟

صاح بيرسيكوف:

- يا لأسئلة الصحافة والجرائد! أنا عموماً لا أسمح لك أن تكتب هراءً. إنني أرى في وجهك أنك ستكتبُ شيئاً سافلاً!

أغلقَ الشابُ دفترهُ الصغير وطلب متوسلاً:

- أرجوكم رجاءً حاراً يا بروفيسور أن تمنحوني صورة شخصيّة لحضرتكم.

- ماذا؟ صورتي؟ ولمجلّتكم؟! مع هذه الكتابة الشيطانيّة التي ستكتبُها.. لا.. لا. أنا مشغول جداً، أرجوك أن تنصرف.

- صورة ولو قديمة، وسأعيدها لكم.

وصاح البروفيسور منادياً بانكرات بصورةٍ مسعورة:

– بانكرات!

قال الشاب وهو يخرج:

– لي الشرف أن أنحني لكم.

وعوضاً عن صوت بانكرات الذي كان ينبغي أن يجيبَ البروفيسور سُمِعَ صريرُ عجلات سيارة جيب، ثمّ قَرعٌ متناوبُ على أرض الممرّ، وظهر في المكتب شخصٌ سمينٌ جداً، يلبس بلوزة وبنطال مُخاطين من جوخ البطانيات، رجله اليسرى الميكانيكية أصدرت صوتاً معدنياً غريباً، ويده اليسرى قبضت على حقيبة، أما وجهه الدائري الحليق المغطّى بمادةٍ صفراء متخثّرة، فقد أفرز ابتسامة تحيّة. انحنى للبروفيسور بطريقة عسكريّة ثمّ استقام ما أدى إلى فرقعة النوابض في رجله، وأسكتَ بيرسيكوف عن المبادرة بالكلام، بدأ الغريب بصوتٍ لطيف:

– أيُّها السيّد البروفيسور، اعذر الشاب المسكين الذي عكّر صفوكم ووحدتكم.

سأل بيرسيكوف:

– هل أنت كاتب ريبورتاجات؟

ثمّ نادى بصوتٍ عالٍ:

– بانكرات!!

أجاب السمين:

– لا، لستُ كذلك أيّها السيد البروفيسور، اسمح لي أن أقدّم نفسي: إنني ملازم بحّار، وكاتب في جريدة «أخبار الصناعة» التابعة لمجلس ممثلي الشعب.

هنا صاح بيرسيكوف بهستيريّة، وتزامنت صيحتُهُ مع لمعانِ إضاءة حمراء في زاوية المكتب ورنين الهاتف:

– بانكرات! بانكرات!!

ثمّ رفع سمّاعة الهاتف: «إنني أسمَعُك»، وجاءَ صوتُ المتحدّث بالهاتف من الطرف الآخر باللغة الألمانيّة:

– اعذرني أيّها البروفيسور على الإزعاج، أنا صحفي من «بيرلينر تاغيبلات»*.

وصرخَ البروفيسور هذه المرّة في سمّاعة الهاتف:

– بانكرات!

وتابع بالألمانيّة:

– أنا مشغول الآن، ولا أستطيعُ استقبالك مهما كان الأمر! بانكرات!!

في هذا الوقت بدأت الاتصالات تردُ إلى غرفة الاستعلامات في مدخل المعهد.

تعالت أصوات بائعي الجرائد الصارخة المبحوحة بين أنوار الحافلات المختلفة وضياء المصابيح على رصيف تموز الحاد:

– جريمةُ قتل مخيفة في شارع بروّني.. ظهورُ مرض مرعب يصيبُ دجاجاتٍ أرملة القس دروزدوفا (مع الصور).. اكتشافً شعاع الحياة الرهيب من قبل البروفيسور بيرسيكوف!!

---

* جريدة برلين اليومية / المترجمان /.

واندفع بيرسيكوف بصورةٍ كادت تُسْقِطُهُ بين عجلات السيارات في شارعِ موخافوي، خطف الجريدة بعنف، فصاح به الولد البائع متكئاً إلى الجدار ومحاطاً بالناس:

– ثلاثة كوبيكات أيّها المواطن. وتابع صائحاً: جريدة «موسكو المسائية الحمراء»، اكتشاف الشعاع إكس!

اتكأ بيرسيكوف إلى عمود الكهرباء وقصف الجريدة، شاهد على الصفحة الثانية، ضمن إطار أسود عريض، وجهاً مرسوماً لشخص أصلع ينظرُ إليه بعينين غبيّتين، بينما تتدلّى شفته من الحنك السفلي، وقد أبدعها الصحفي ألفريد برونسكي. كُتبَ تحت اللوحة:

«ف. إي. بيرسيكوف، مكتشف الشعاع الأحمر اللغز»، أسفل اللوحة وتحت عنوان «اللغز العالمي» بدأت المقالة بالكلمات: «إجلسْ ـ قال لنا مُرحبِّاً العالم الموقّر بيرسيكوف...».

المقال وقّع باسم: «ألفرد برونسكي (ألونزو)».

في اللحظة نفسها أشرق ضوءٌ أخضر فوق سطح بناء الجامعة، وشعّت في السماء كلماتٌ مُضاءَة: «الجريدة الناطقة»، فاكتظ شارع موخافوي بالناس فوراً، بعد ذلك علا صوتٌ مقيت حاد، يشبه تماماً صوت ألفريد برونسكي، عبر مكبّر الصوت:

– اجلسوا، قال لنا البروفيسور الموقّر مُرحبِّاً! إنني منذ زمن كنت أريد أن أُطلِعَ البروليتاري الموسكوفي على نتائج اكتشافي...»

خلف ظهر بيرسيكوف سُمع صريرٌ ميكانيكيٌ خفيف، وشدَّهُ من كُمّه شخص ما، عندما التفت إلى الخلف شاهد الوجه الأصفر

المدوّر لصاحب الساق الميكانيكيّة. عيناهُ كانتا طافحتين بالدموع وشفتاهُ ترتجفان. تنهّد بعمق، وقال بصوت حزين:

– أيّها السيد البروفيسورٍ، لم ترغب أن تطلعني علي اكتشافِكَ الرائع، ولهذا فقد ذهبت أدراجَ الرياح الخمسة عشرَ روبلاً، التي كنتُ سأتقاضاها لقاء ذلك.

نظر بيرسيكوف بحسرة، إلى حافة سطح الجامعة، إلى المكان الذي ينطقُ منه صوت ألفريد برونسكي المختفي عن الأنظار، ثمّ شعرَ لسببٍ ما بشيءٍ من الشفقة على الرجل السمين، الذي وجّه إليه الكلام متمتماً، وهو يلتقط بحقد العبارات المتساقطة من السماء:

– أنا.. لم أقلْ له «اجلسْ» على الإطلاق، إنه شخصٌ وقحٌ سافل، اعذرني من فضلك، لكن عندما تعمل في مكتبك ويقتحمونه عليك ـ أنا لا أعنيك أنت طبعاً ـ ما الذي...

قاطعه الرجل الميكانيكي بصوت كئيب:

– ألا يمكنك أيّها البروفيسور أن تقدّم لي ولو وصفاً للحجرة المُحكمة؟ أصبح الأمر سيّان بالنسبة لك...

تابعَ المجهولُ صارخاً في مكبّر الصوت:

– نصفُ رطلٍ من بيوض الضفادع تنتِجُ خلال ثلاثة أيّام أعداداً هائلة من الشراغيفٍ، لا يمكنُ عدّها.

وتمتمت جموعُ الناس هازةً رؤوسها؛ وسط ضجيج السيّارات في شارع موخوفوي:

– يا للعجب.. يـ..ا له من عالم... يا لطيف!

ارتجفَ بيرسيكوف ساخطاً وقال للرجل الميكانيكي:

– أيّ حقيرٍ هذا؟ هل.. هل يعجبك هذا؟ سأقدّم شكوى ضدّه!

وافقَ السمينُ قائلاً:

– مثيرٌ للسخط.

شعاعٌ بنفسجيٌّ وهّاج انصبَّ في عيني البروفيسور، واشتعلت الأنوار في المنطقة: أعمدة الكهرباء، أنوار الرصيف، الجدار الأصفر، وجوه الناس الفضوليّة.

تمتم السمين معجباً ورفع يد البروفيسور من كُمّه، وكأنّه يزنها فِعلَ الثقّال:

– هذا لك أيّها السيد البروفيسور. وانطلقتْ في السماء بعض الألعاب الناريّة.

صاح البروفيسور ممتعضاً وهو يحاول تحرير يده من الثقّال:

– ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم. إيه تكسي إلى شارع بريتشستنيك!

توقفت سيارة موديل 1924 عند الرصيف، بينما ظلّ محركها يهدُر. صعد البروفيسور مُحاولاً أن يُفلتَ من الرجل السمين:

– أنت تزعجني، قال ذلك حاجباً الضوء البنفسجي عن عينيه براحتيه وهمّ أن يستقل السيارة، فتعالت من حوله أصوات مجموعة من الأطفال:

– قرأتم؟؟ ماذا تقول الصحيفة الناطقة؟

صرخ البروفيسور في اللحظة التي صوّب أحدهم نحوه جهازاً أسود فالتقط له صورة جانبيّة، وهو يفتحُ فمه، وعيناهُ تلمعان:

- ليسَ لديّ ما أقولُهُ لكمْ، أيّها الأطفال التُعساء!

زعق السائق وهو يشق الجموع:

- إيه.. هو.. هي...

كان الرجلُ السمين يجلس في المقعد الخلفي للسيارة ويدفئ الجانب الأيمن من جسد البروفيسور.



الفصل الخامس


محمد خطاب

قصة الدجاج

في مدينة نائيةٍ صغيرة كانت تسمّى ترويتسك فيما مضى، وتدعى الآن ستيكلوفسك، تابعة لمحافظة كوسترومسك، خرجت من جناح أحد بيوت شارع سوبورني (سابقاً)، بيرسونالني (حالياً)، امرأة بثوبٍ رمادي مُرقّش بباقات قطنيّة، تلفُ عنقها بشال، وأخذت تبكي.

إنّها أرملة دروزدوف قسيسُ الكنيسة فيما سبق. كان بكاؤها عالياً حتى أن امرأة عجوزاً أطلت برأسها الملفوف بشالٍ صوفي من نافذة البيت المقابل في الشارع ونادتها سائلةً:

– ستيبانوفنا ما بكِ؟ هل نفقت طيور أخرى؟

أجابت أرملة دروزدوف:

– السابعة عشرة!

ناحت العجوز هازةً رأسها:

– يا إلهي.. يا إلـ.. ا.. هي.. ما الذي يحصل؟ إن الرب غاضبٌ علينا ولا شك.. أتعتقدين أنها ستموت أيضاً؟!

تمتمت زوجة القس، ثم نشجت بصعوبة وبصوتٍ عالٍ:

– نعم، انظري ماترينا، انظري ماذا حصل لها!

فرقعت شجرةُ الخوخ الرماديّة الذابلة، وجاست أقدامُ المرأتين الحافيتين جاست نتوءات الطريق الترابيّة الناعمة، كانت زوجة القس تقودُ مبتلّة العينين ماترينا إلى حظيرة الدجاج في بيتها.

يجب القول إن أرملة القس ساخاني دروزدوف، الذي توفي عام 1926 جرّاء الحسرات التي عاناها بسبب الحملات المعادية للدين، لم تجلس مكتوفة اليدين بعد موت زوجها، بل عملت في تربية الدجاج، فإذا ما سارت أعمالها بشكل جيد، فرضوا عليها ضرائب، كادت تجعلها تعزف عن عملها هذا، بسبب زمرةٍ من الناس غير الصالحين، الذين أرادوا أيضاً تسليمها للسلطات المحليّة، وقد رفعوا تقريراً يقول إن الأرملة أسست جمعية تعاونية لتربية الدجاج؛ أعضاؤها:

الأرملة دروزدوفا، وخادمتها الأمينة ماتريشكا، وابنة أخ دروزدوفا، وهي أرملة طرشاء. حصّلوا منها ضرائب كبيرة، لكن تربية الدجاج لديها تحسّنتْ؛ حتى أن باحة بيتها الترابيّة ضمّت 250 دجاجة، بينها دجاجات فيتامينيّة، وظهرت بيوض دجاجات الأرملة في سوق مدينة ستيكلوفسك أيام الآحاد، وفي سوق مدينة تامبوف، وأحياناً كثيرة في واجهات محلات «جبن وزبدة تشتشكينا» في موسكو.

منذ الصباح والدجاجة السابعة عشرة، المحبوبة ذات العرف الجميل تدور في الباحة وتقيء: «إر.. رر.. أورل.. كو.. كوكو..». رفعت الدجاجة إلى السماء بعينين حزينتين وكأنها تراها لآخر

مرّة، ولم تعبأ بماترينا عضو الجمعية التي وضعتَ فنجان الماء قرب منقارها، ثم راحت تتبعها في الباحة:

– يا ذات العرف الجميل، يا غاليتي.. إش.. إش.. اشربي الماء.

توسلت ماتريشكا وهي تحاول إيصال الفنجان إلى منقار الدجاجة، لكنها لم تشرب.. فتحت منقارها واسعاً، رفعت رأسها إلى الأعلى ثم أخذت تقيءُ دماً.

صرخت الضيفة وهي تضربُ جبينها بيديها:

– أيُّها الربُ المسيح، ما الذي يحصل؟ إنها تقيءُ دماً. لم أرَ في حياتي دجاجة تتألم من بطنها كالإنسان!

كانت تلك كلمات الوداع الأخيرة التي قيلت للدجاجة ذات العرف الجميل، سقطت بعد ذلك على جنبها، غرست منقارها في الأرض، وأطفأت عينيها، ثم استلقت على ظهرها ورفعت رجليها إلى أعلى.

بكت ماتريشكا بصوتٍ عالٍ، بينما غسلت زوجةُ القس ـ قائدةُ الفرقة ـ الفنجانَ، وصبّت ماءَهُ على الأرض، انحنت الضيفة نحوها وهمست في أذنها:

– ستيبانوفنا! سأستفُ التراب إذا لم يكن أحدهم قد فعل شيئاً لدجاجاتك! ما من مرض دجاجٍ يفعل هذا الفعل! لابد أن شخصاً ما قد سحرها!

رفعتْ زوجة القس يديها إلى السماء وقالت:

– هؤلاء أعداء حياتي يا رب، أيريدون الآن طردي من الحياة!؟

أجابَ نداءَها ها صياحُ ديكٍ عال، خرج ضالعاً مذعوراً من القن ـ كأنه سكيرٌ مذعور يخرج من مشربٍ بيرة ـ كان نحيفاً أشعثَ، أجال النظر بوحشيّة في المرأتين، نثر التراب بقائمتيه. فتح جناحيه مثل النسر، لكنّه لم يطرْ إلى أي مكان، بل بدأ يدور في الفناء كحصانٍ في ملعبٍ للفروسيّة، في الدورة الثالثة توقّف وبدأ بالإقياء.. شخرٍ ونخر.. بصق حوله قطرات دم، ثم انقلب على ظهره ورفع قائمتيه إلى السماء كصاريتين.

ولولةُ السيدتين ملأت الحي، واستدعت صياح ديكة ونقنقة دجاج.

سألت الضيفة منتصرةً:

– أليسَ هذا فساداً؟ اذهبي واستدعي الأب سيرغي ليقرأ عليها كلاماً مقدّساً.

الساعة السادسة مساءً، عندما كانت الشمس تتراءى من خلال عباد الشمس وقد انخفضت أسفل الحزام الأحمر، أنهى الأب سيرغي رئيس المعبد الكَنَسي صلاته في فناء قن الدجاج، وهمّ بالخروج. كانت رؤوس الناس الفضولية تعتلي الجدار القديم وتظهر من شقوقه. وضعت زوجة القس الثكلى روبلاً ممزّقاً ضارباً إلى الصفرة، مبتلاً بالدموع على الصليب وقدّمته إلى الأب سيرغي الذي تنفّس بعمق، وبيّن أنها دلائل غضب الرب! كان يعرف جيداً أسباب غضب الإله، لكنّه ما كان ليبوح بذلك.

تفرّقت جموع الناس، وبما أن الدجاج يرقد باكراً، فما كان باستطاعة أحد أن يعرف أن ثلاث دجاجات وديكاً نفقت في قن

البيت المجاور فور انتهاء الصلاة، لكن موتها جاء أكثر هدوءاً لأنها حبيسة القن؛ فقد سقط الديك ورأسُهُ إلى الأمام، ومات في الوضعيّة نفسها. وفيما يخص دجاجات الأرملة الباقية، فيمكن القول إنها ماتت جميعاً، فمع حلول الظلام كانت مخلوقات القن ميّتة وهادئة؛ مستلقيةًعلى صدورها.

استيقظت المدينة صباح اليوم التالي مصعوقةً، القصّة اتخذت صياغاتٍ غريبة عجيبة. والحقيقة أن ثلاث دجاجات فقط بقيت على قيد الحياة في محيط شارعٍ بيرسونالني كلّه، في البيت الأخير من الشارع حيث استأجر شقةً المفتش المالي للقضاء. وحتى هذه الدجاجات لم تتمكن من الصمود إلى ما بعد الواحدة ظهراً. عند حلول المساء بدأت مدينة ستيكلوفسك تضجُّ وتغلي كخليّة نحل، لقد انتشرت في أنحائها كلمة مخيفة «وباء»، وَوردَ اسم عائلة دروزدوف في الصحيفة المحليّة المسمّاة «المناضل الأحمر» في مقال بعنوان: «هل هو وباء جدرة الدجاج» ومنها انتقل إلى موسكو.

أخذت حياة البروفيسور بيرسيكوف تتسمُ بالغرابة والحيرة والقلق، وباختصار أصبح من المستحيل العمل في ظل هذا الوضع. اضُطر في اليوم التالي لتملّصه من الصحفي ألفريد برونسكي أن يفصل هاتف مكتبه في المعهد، برفع السمّاعة عن موضِعها.

ذات مساء بينما كان البروفيسور يستقل الترامواي في شارع أخوتني رياد شاهد صورته على جدار مبنىً كبير تحت عنوان عريض بالخط الأسود «الجريدة العماليّة»، كان في الصورة يحاول

جاهداً أن يستقل التاكسي، ساتراً شيئاً من وجهه براحتيه جرّاء ذلك الضوء البنفسجي، وفي شارع فولخونكي، بجوار كنيسة المسيح في المكان نفسه تماماً تلألأت كتابةٌ ضوئية تقول:

«البروفيسور بيرسيكوف يقدّم توضيحاً لمراسلنا المعروف الملازم ستيبانوف وهو يستقل التاكسي»، وانطلقت سيّارة تنهب الشارع متمايلةً، والبروفيسور يترنّح داخلها وهو يعض على ناجذيه:

– إنهم شياطين، ليسوا بشراً على الإطلاق!

استلم البروفيسور مساء اليوم نفسه، عندما عاد إلى منزله في شارع بريتشيستينك، قائمة تضمُّ سبع عشرة ملاحظة مع أرقام الهواتف، قدّمتها له الاقتصاديّة ماريّا ستيبانوفنا، كل أولئك اتصلوا بالعالم أثناء غيابه عن المنزل. أعلنت ماريا ستيبانوفنا أن الوضع لم يعد يطاق، فهمَّ البروفيسور أن يمزّق تلك الرسائل، لكنّه توقّف قليلاً حين قرأ بجانب أحد أرقام الهواتف: «المفوّض الشعبي للصحّة» ثم تمتم العالم الغريب الأطوار حائراً:

– ما هذا؟ ما الذي يحدث لهؤلاء الناس؟

في الساعة العاشرة والربع من المساء نفسه قُرِعَ جرس الشقّة، واضطرّ البروفيسور أن يحادث مواطناً متبرّجاً بصورة غريبة؛ استقبله بسبب بطاقة التعريف التي جاء فيها: «مسؤول الأقسام التجاريّة، للممثّليات الأجنبية في جمهورية السوفييت ـ كامل الصلاحيّة». تمتم بيرسيكوف رامياً بعض المخططات الإحصائية على الرف الأخضر ومخاطباً ماريّا ستيبانوفنا:

- فليأخذه الشيطان! نادِ.. هذا الكامل الصلاحية إلى مكتبي!

سأل بيرسيكوف بلهجةٍ حادة:

- بماذا أستطيعُ أن أخدِمَك؟

ثمّ وضع نظّارته على أنفه وحدّق بالزائر من جديد، كان الرجل يلتمع بالكريمات والأحجار الثمينة، وقد ثبّت عدسة واحدة بسلسلة على عينه اليُمنى. فكّر بيرسيكوف: «يا لها من سحنة شنيعة».

سأل الضيفُ من بعيد إن كان البروفيسور يسمح بإشعال سيجار، ما جعله يدعوه للجلوس ممتعضاً. قدّم الضيف اعتذاراً طويلاً لأنّه قَدِمَ في وقتٍ متأخّر: «لكن من غير الممكن نهاراً القبض عَـ... هاها.. ها عذراً أقصد مقابلة السيد البروفيسور» (ضحك الضيف ناخراً مثل ضبع).

أجابه بيرسيكوف باختصارٍ شديد جعله يتشنّج من جديد:

- نعم إنني مشغول!

لكنه سمح لنفسه أن يتابع إزعاج العالم:

- الوقت، كما يقال، من ذَ... أيزعجُ السيجارُ البروفيسور؟

- أوخ.. أوخ.. أوخ. وسمحَ له...

- أليسَ البروفيسور من اكتشفَ شعاع الحياة؟!

اجاب البروفيسور بحيويّة:

- عفواً.. أية حياة؟! هذا أمرٌ اخترعته الصُحف!

- أوه، لا، هاها، ها... ـ لقد كان يعلم تمام العلم أن التواضع ميزة العلماء الحقيقيين ـ ما الذي تقوله.. هناك برقيّات اليوم... في

كثير من مدن العالم مثل وارسو، ريغا.. أصبح أمر الشعاع شائعاً تماماً، اليوم يُرَدِدُ العالمِ كله اسم البروفيسور بيرسيكوف ـ أخذ نفساً عميقاً ثمّ تابع ـ لكن من المعروف تماماً كم هو صعبٌ وضع العلماء هذه الأيام في روسيا السوفييتيّة.. أيوجد أشخاصٌ غير موثوقين هنا؟ آه في هذه البلاد لا يقدّر أحد عمل العلماء، ولهذا فهو يريد أن يناقش الأمر مع البروفيسور.. بصراحة هناك حكومة أجنبيّة تعرضُ على البروفيسور بيرسيكوف مساعدةً في أعماله المخبريّة لوجه الرب. لماذا كنسُ الخرز هنا كما يقول الكتاب المقدّس. الحكومة تلك تعلم كم عانى البروفيسور خلال عامي 19 ـ 20 أثناء هذه الـ... هاها.. الثورة! طبعاً الأمر سيكون سرياً للغاية.. يقوم البروفيسور بإطلاع الحكومة على نتائج عمله وهي بالمقابل ستقوم بتمويله، لقد صممتَ غرفة صغيرة محكمة، ومن المفيد أن تطلع الحكومة على المخططات الإنشائية ـ وهنا سحبَ الضيف من جيبه الداخلي رزمة بيضاء ناصعة من الورق ـ إنّه مبلغ زهيد خمسة آلاف روبل يمكن للبروفيسور أن يستلمها الآن.. ولا ضرورة لكتابة وصل استلام، بل مجرد حديث البروفيسور عن وصل استلام سيغضب المسؤول التجاري كامل الصلاحيّة.

عندها صرخ بيرسيكوف بشكل مخيف، ممّا جعل مفاتيح البيانو في الصالون تصدر رنيناً ناعماً:

– أخرجْ من هنا!!!

اختفى الضيفُ سريعاً، حتى أن بيرسيكوف نفسه، وكان لا يزال يرتجف اعتراه الشك، هل كان الرجل موجوداً فعلاً، أم هي مجرّد هلوسة؟ بعد دقيقة كان بيرسيكوف في الممر:

– أهذا حذاؤه؟!

أجابت مارينا ستيبانوفنا مرتجفة:

– نسيه هنا.

– ارمِهِ في الخارج.

– أين سأرميه! لابدّ أن يعود ليأخذه.

– سلّميه للجنة المبنى، وخذي وصل استلام. المهم ألا أجد أثراً له هنا. اعطِهِ للجنة! ليستلموا حذاء العميل!

رسمت ماريا ستيبانوفنا إشارة الصليب على صدرها، وأخذت الحذاء الجلدي الرائع إلى مخرج الطوارئ، وقفت هناك قليلاً، ثمّ أخفته في المستودع وعادت. سأل بيرسيكوف مغتاظاً:

– هل سلّمتِ الحذاء؟!

– نعم

– أعطني وصل الاستلام.

– فلاديمير إيباتيتش، المسؤول هناك أمّي!

– أريد الوصل الآن! دعي أحد الحُقراء المتعلّمين في اللجنة يوقّع بالنيابة عنه!

هزّت ماريّا ستيبانوفنا رأسها وخرجت، لتعودّ بعد ربع ساعة حاملةً وصل استلام دوّن عليه: «سُلِّمَ للصندوق من قبل البروفسور بيرسيكوف. توقيع كوليسوف».

– ما هذا؟

– فيشه!

ركل بيرسيكوف الفيشه برجله، أما وصل الاستلام فقد أخفاه في الخزانة وأقفلَ عليه. فكرةٌ ما ظلّت تقلقُ البروفيسور وتبدو علائمها على جبينه الدائري، هرع إلى الهاتف واتصلَ ببانكرات في المعهد: «هل كل شيءٍ على ما يُرام»؟ وفُهِمَ من العلائم التي ظهرت على وجهه أن الأمور بخير، لكن بيرسيكوف لم يهدأ لأكثر من دقيقة واحدة فقط. رفع سمّاعة الهاتف من جديد متجهّماً ثمّ قال:

– صِلْني بهذه.. ما اسمُها.. لوبيانكا* ، شكراً.. مع من أستطيع التحدّث.. هناك أشخاص مشبوهون يجولون هنا. نعم. بروفيسور الجامعة الرابعة بيرسيكوف.

وانقطع الاتصال بصورةٍ حادة. ابتعد بيرسيكوف عن التلفون هاذياً، بزغت ماريا ستيبانوفنا من باب المكتب وسألت:

– فلاديمير إيباتيتش، هل تريدُ شرب الشاي؟

* لوبيانكا: هي المنطقة التي كان يقع فيها جهاز الاستخبارات السوفييتي، أما الآن فهي خاصة بوزارة الأمن الروسية / المترجمان /.

– لا أريدُ أن أشرب أي نوع من الشاي.. آخ.. آخ.. ليذهبِ الجميعُ إلى الجحيم.. كيف سُعِروا!

استقبلَ البروفيسور بعد عشر دقائق فقط ضيوفاً جدداً في مكتبه، أحدهم كان مُهذّباً، لطيفاً جداً، كرويّاً، يلبسُ سروالاً وسترة عسكرية واقية متواضعة، وعلى أنفه توضّعت نظّارة مثل فراشة كريستاليّة، كان عموماً يذكّر بملاكٍ في جزمة مطليّة بالبويا جيداً.

كان الثاني قصيراً ومتجهّماً بشكلٍ مخيف، كان يلبس بزّة عسكريّة، لكنها بدت خجلى على جسدهِ. الضيف الثالث تصرّف على نحوٍ خاص، فلم يدخل مكتب البروفيسور، بل ظل في الممرّ نصف المظلم، ومع ذلك فإن المكتب المُضاء والمخترق بخيوطِ دخان التبغ المتصاعدة كان مكشوفاً له بصورة جيّدة. على وجه هذا الثالث الذي ارتدى بدوره بزّة عسكرية التمعت نظّارة من النوع الذي يُعلّق على الأنف.

الضيفان اللذان دخلا المكتب أرهقا البروفيسور بأسئلتهما وهما يتفحّصان بطاقة التعريف، ويسألانه عن الخمسة آلاف روبل، وعن ملامح الضيف الخارجيّة.

تمتم بيرسيكوف:

– الشيطان وحده يعرف، لكنها سحنه مقرفة. منحط.

سأله الرجل القصير:

– هل كان بعينٍ زجاجيّة؟

– الشيطان وحده قادر على معرفة ذلك. لكن لا. ليست زجاجيّة، كانت عيناهُ تركضان في جنبات المكان!

سأل عندها الملاك وهو ينحني نحو صاحبه القصير:

– روبينشتاين؟

لكن القصير هزّ رأسه باعتراض وعبوس:

– روبينشتاين لا يعطي مالاً دون أن يأخذ وصل استلام، لا ليس هذا فعل روبينشتاين، إنه شخص أهم منه بكثير.

واهتمّ الضيوف كثيراً بحكاية الحذاء. تحدّث الملاك هاتفياً مع إدارة المبنى: «الإدارة السياسيّة الحكوميّة تدعو سكرتير لجنة المبنى كوليسوف بسرعة إلى شقّة البروفيسور بيرسيكوف، مع الحذاء». ظهر كوليسوف مباشرةً في المكتب حاملاً الحذاء وشديد الشحوب.

نادى الملاك بهدوءٍ الشخص الذي جلس في الممر:

– فاسينكا!

نهض ببطءٍ ودخل المكتب. كانت عدستا نظّارته المُدخَّنتين تبتلعان عينيه، سألَ وكأنه نصف نائم:

– ماذا؟

– الحذاء!

أخذت عيناهُ الدخانيتان تتفحصّان الحذاء، ودهش بيرسيكوف للحظة، عندها اكتشف من جانب النظارة أنّ عيني الرجل ما كانتا ناعستين بل شديدتي اليقظة والحذر. ثمّ انطفأتا فجأةً!

- إذاً فاسينكا!؟

وعندها أجابَ المدعو فاسينكا بصوتٍ مُتعَب:

- إنه ببساطة حذاء من مدينة بيلينجكوفسك.

وعلى الفور حُرِمَ صندوق المبنى من هديّة البروفيسور بيرسيكوف. لُفّ الحذاء بجريدة. الملاكُ الشديدُ السعادة نهضَ وصافحَ البروفيسور بحرارة ضاغطاً على يده، ثمّ قال كلاماً على عجل مفادُهُ: إن ما حدث أكسبَ البروفيسور شرفاً.. وعليه أن يكون مطمئنّاً.. لن يزعجه أحد بعد اليوم، لا في المعهد، ولا في البيت.. ستُتخذ اجراءاتٌ مهمّة تجعلُ غرفة اختباراتِهِ الصغيرة في مأمن تام...

سألَ البروفيسور وهو ينظر من أعلىً نظّارته:

- لعلّ من الصعوبة أن تقتلوا هؤلاء الصحفيين بالرصاص؟!

أبهجَ السؤالُ الضيوف كثيراً، ليس الصغير منهم فحسب، بل حتى ذا العينين الدخانيتين، الذي ابتسم في الممر، ووضّح الملاك بصدق أن ما يطلبُهُ البروفيسور غير ممكن!

- من يكون إذاً اللئيم الذي دخلَ بيتي؟

هنا توقّف الجميعُ عن الابتسام، وأجابه الملاك بأن الشخص متهوّر صغير، لا يستحقُ التفكير به، ومع ذلك طلب من المواطن البروفيسور بجديّة أن يُبقي كل ما حصل هذا المساء طيّ السريّة التامة، وخرج الضيوف.

عاد بيرسيكوف إلى المكتب، أخذ المخططات عن الرف، لكنّه لم يتمكّن من متابعة عمله. أطلق الهاتف حلقاتٍ ناريّة من حوله، وتناهى

صوتٌ نسائي يعرضُ على البروفيسور أن يتزوّج من أرملة جميلة تملك شقّة مكوّنة من خمس غُرف. صرخَ البروفيسور في السمّاعة:

– أنصحكِ أن تُعالجي نفسك عند البروفيسور روسّوليمو.

ثمّ رنّ الهاتف مرّة أخرى، وكان على بيرسيكوف أن يمسك بأعصابه قليلاً، فالشخص المتحدّث معروف، ويخاطبُه من الكرملين، سأله مطوّلاً عن عمله وعبّر له عن رغبته في زيارة مختبره.

مسح بيرسيكوف العرق المتصبب من جبينه، ورفع السمّاعة عن موضعها وابتعد عن الهاتف. عندها تعالت أصواتُ انفجار أنابيب من الشقة العُليا، وتطايرت بعض الأطباق.

التقط المذياع عند مدير المجمّع السكني الأحمق حفلةً موسيقيّة لعازف البيانو المعروف فينغيرسكي، تُبثُّ مباشرة من مسرح البولشوي.

أعلن بيرسيكوف ـ تحت تأثير الزعيق والضجيج القادمين من أعلى ـ لماريّا ستيبانوفنا بأنّه سيقدّم دعوة قضائيّة ضد هذا المدير، وأنّه سيحطّم له المذياع، وسيخرج من موسكو إلى جهنم، لأن أولئك الناس ـ على ما يبدو ـ وضعوا أمامهم هدفاً؛ هو إخراجه من موسكو كلّها، انصرف بعد ذلك إلى المكتب، تمدد فوق الأريكة الطويلة، وغفا على الأنغام الجميلة لعازف البيانو المعروف وهي تتهادى مباشرةً من مسرح البولشوي.

استمرّت المفاجآت في اليوم التالي، التقى بيرسيكوف وهو ينزلُ من الترامو ويتجه إلى المعهد مواطناً لا يعرفه، يعتمر قبّعة

خضراء حسب الموضة السائدة، ويقف عند جناح المبنى، حدّق الرجلُ مليّاً بالبروفيسور دون أن يتوجّه إليه بأي سؤال، وهذا ما جعل بيرسيكوف يتحمّلُهُ، لكن عند مدخل المعهد نهض للقائِهِ ـ بالإضافة لبانكرات الدَهِش ـ شخص آخر يعتمر قبعة مشابهة، حيّا بيرسيكوف بلطف:

– مرحباً أيها البروفيسور * .

أجاب بيرسيكوف متجهّماً، وهو ينزع معطفَهُ بمساعدة بانكرات:

– ماذا تريد؟!

لكنّ صاحب القُبّعة هدأ غضب البروفيسور بسرعة، عندها همس بصوتٍ لطيف، أن لا داعي للقلق، فهو موجود هنا، بشكل خاص لتخليص البروفيسور من الزوار غير المرغوب بهم، وأن على البروفيسور أن يطمئن فلن يزعجه أحد سواء من باب مكتبه، أو من خلف النوافذ، ثمّ فتح الرجل المجهول معطفه للحظةٍ، كي يتمكّن البروفيسور من رؤية ميداليّة معيّنة.

– حسناً.. لقد رتّبت الوضع بشكل جيّد ـ ثم تابع بكلام لا معنى له ـ ماذا ستأكل هنا؟

ابتسم صاحب القبّعة وقال إن عملية تبديل ستحدث.

---

* هنا وفي مواضع أخرى تُسبَق كلمة البروفيسور بـ المواطن، وقد كانت هذه الصيغة دارجة جداً في الاتحاد السوفييتي: ـ أيها المواطن البروفيسور، المواطن الطيار.. الخ. لكننا حذفنا كلمة (مواطن)! / المترجمان /.

بعد ذلك مَرَّتْ ثلاثة أيام بشكلٍ رائع، حضروا مرتين من الكرملين لزيارة البروفيسور. ومرّة قدّم مجموعة من الطلاب امتحاناً عنده، فخرجوا حتى آخرهم مخضّبين بدمائهم! وبدا من ملامحهم أن بيرسيكوف يثير فيهم مشاعر الفزع بكل بساطة.

كان صوت البروفيسور يُسمَع من مكتبه وهو يصيح بهم:

– إذا كنتم ستنتسبون إلى مفوّضية الشعب، فلن تستطيعوا ممارسة علم الحيوان.

سألَ صاحب القبّعة بانكرات:

– هل هو قاسٍ؟

أجاب بانكرات:

– أو، يا إلهي، من النادر أن يصمد واحدٌ من الطُلاب عنده، عادةً يخرج الطالب من امتحانه متعباً يتمايل، متعرّقاً من شدة الإرهاق، فينطلق إلى أقرب مشرب للبيرة كي يروّح عن نفسه.

انشغلَ البروفيسور طوال ثلاثِ ليالٍ بأعماله، لكنّهم أعادوه إلى أرض الواقع في اليوم الرابع، وذلك بفعل صوتٍ رقيقٍ مزعج تناهى إلى سمعه من الشارع:

– فلاديمير إيباتيتش! ـ دخلت الصرخة من نافذة المكتب المفتوحة على شارع غيرتسن، وقد حالفها الحظ، فبيرسيكوف يرتاحُ مستلقياً في هذه اللحظة على الديوان يدخّن بخمول، ويراقب الدوائر الضوئيّة الحمراء، بعد تعب الأيام الأخيرة. نظر البروفيسور إلى الشارع بدافع الفضول، فشاهد ألفريد برونسكي على الرصيف

المقابل، عرف على الفور صاحبَ بطاقةِ التعريف العتيدة، والطاقية ذات الرأس المدبب، ودفتر الملاحظات! انحنى برونسكي للبروفيسور، الذي سأله:

– آخ هذا أنتَ إذاً؟!

لم يكن يملك من القوّة ما يجعله يغضب، بل لعلّه شعر بالفضول، فماذا بعد؟ وهو في كل الأحوال بمأمن من ألفريد طالما يقف خلف النافذة. هرع الرجل المكلّف بحراسة البروفيسور باتجاه برونسكي، وهمس في أذنه بضع كلمات، ظهرت بعدها ابتسامةٌ رقيقة على وجهه، ثم صاح بأعلى صوته، من مكانِهِ على الرصيف:

– أحتاج لزوج من الدقائق من وقتك. سؤال واحد فقط، وهو يتعلّق بعلم الحيوان، أتسمح لي بطرحِهِ عليك؟

أجاب بيرسيكوف بشكل مقتضب وساخر:

– اطرحْ سؤالك! ثم فكّرَ: «مهما يكن في هذا السافل شيء ما أمريكي».

صاح برونسكي وهو يُطالِبُ يديه على صدره:

– ما الذي تقوله عزيزي البروفيسور نيابةً عن الدجاج؟

دهش بيرسيكوف.. جلس فجأةً على حافة النافذة، ثمّ انزلق عنها وضغط زر الجرس الكهربائي، صاح مشيراً بإصبعه عبر النافذة:

– بانكرات، أدخل ذلك الرجل الواقف على الرصيف.

بعد أن دخل برونسكي المكتب، قال بيرسيكوف وهو يحاول جاهداً أن يكون مهذّباً:

– اجلسْ. ابتسمَ برونسكي باحترام، وجلس على الكرسي المُتحرّك.

قال بيرسيكوف:

– اشرح لي من فضلك: أنت تكتب في جرائدكم تلك، أليس كذلك؟

أجاب برونسكي باحترام:

– نعم، صحيح!

– لا أفهم، كيف يمكنك الكتابة في الصحف إذا كنت لا تتقن اللغة الروسيّة ولا تحسن الحديث بها؟! ماذا يعني: «زوج دقائق» و«ماذا تقول نيابةً عن الدجاج». ربّما كنت تقصد «بخصوص الدجاج» أو «حول الدجاج»؟

ضحك برونسكي بميوعة، مع المحافظة على الاحترام:

– يصحح ما أكتبُهُ فالنتين بتروفيتش.

– من فالنتين بتروفيتش هذا؟

– رئيس القسم الأدبي.

– لا بأس، لندع اللغة لصاحبك بتروفيتش، فأنا أيضاً لستُ لغويّاً، لكن ما الذي تريد معرفته عن الدجاج؟

– بشكل عام: كل شيء تقوله يا بروفيسور!

واستعدَ برونسكي للكتابة ممسكاً قلمه الرصاص، بينما التمعت شرارات النصر في عيني بيرسيكوف.

- عبثاً قدِمت إليّ، إنني لستُ مختصّاً بالطيور. كان من الأفضل أن تتوجّه إلى يميليان إيفانوفيتش بورتوغالوف في الجامعة الأولى. إنني شخصيّاً أعرفُ القليل...

ابتسم برونسكي متعجّباً، مبيّناً أنه فهم مزحة البروفيسور العزيز، وكتب في دفتره «مزحة ـ صغيرة!».

- على كل حال، إذا كنتَ مهتمّاً، اسمح لي أن أقول: الدجاج، أو ذوات العُرف هي نوعٌ من الطيور، من فصيلة الدجاج، ومن سلالة الدرّاج (دراريج).

كان صوت البروفيسور عالياً، ونظره يتجاوز برونسكي وكأن ألف شخص يجلسون أمامه... تابَعَ:

- من سلالة الدرّاج، سلالة فازيانيدي. والدجاج طيورٌ لها عرفٌ لحميٌّ ـ جلدي في أعلى الرأس، وشفرتان من النوع نفسه أسفل الفك السفلي، أو شفرة لحميّة ـ جلديّة واحدة في منتصف الذقن! ماذا بعد؟ أجنحة هذه الطيور قصيرة ومدوّرة.. الذيل متوسط الطول، له تدرّجات عدّة، ويمكن أن أشبّه شكله بالسقف، فالريشة الوسطى محنيّة أو ملتوية كالمنجل.. بانكرات أحضر لي النموذج رقم (705)، ديك مشطور، أو مقطع طولاني، وعلى كلٍ ربّما هذا الأمر لا يهمّك؟؟ حسناً لا تحضره يا بانكرات.

أكرر لك أنني لستُ اختصاصياً، اذهب إلى بورتوغالوف، إنّه يعرف أكثر منّي، أنا أعرف ستة أنواع من الدجاج البري، فقط، بورتوغالوف يعرف أكثر بالتأكيد.

في الهند مثلاً، وفي الأرخبيل الماليزي تجد الديك البانكوكي أو (كازينتو)، وهو يعيش على سفوح جبال الهيمالايا، وفي أسّام وبيرم.. أما الديك ذو الذيل المنفوش أو (غالوس فاريوس) فيعيش في لومبوك، وفي سومباوي وفلوريس. وفي جزيرة ياڤا يعيش ديكٌ فريدٌ من نوعه اسمه (غاليوس إينيوس)، وفي جنوب ـ شرق الهند يمكن أن أنصحك بديك جميل جداً من نوع (زونيراتوف).. سأريك صورتَهُ فيما بعد. أما ما يخص جزيرة سيلان.. فهناك يمكن أن نلتقي ديك (ستينلي)، الذي لا يمكن أن نشاهدهُ في مكان آخر!

خلال ذلك كان برونسكي يقطّب حاجبيه، ويحملق في البروفيسور:

– هل تريد معلومات أخرى؟

أجاب برونسكي بهدوء:

– أردتُ أن أعرف شيئاً ما عن أمراض الدجاج.

– ام.. م م، إنني لستُ أخصائياً.. اسألْ بورتوغالوف.. لكن لا بأس: أمراض الدجاج عديدة: هناك الديدان الشريطيّة، الديدان الماصّة، الجرب، القراد الحويصلي، جرب الدجاج، قمل الدجاج، الفاسوق، كوليرا الدجاج، التهاب الأغشية المخاطيّة الديفتريائي.. التهاب الرئتين بالمفطرات. وهناك الكثير الكثير.. ـ والتمعت عينا البروفيسور ـ ... التسمّم مثلاً، الكَلَبْ، الورم، المرض الإنكليزي، اليرقان، الروماتيزم، فطر أخوريون شينليانى وهو مرض مهم جداً؛ عند إصابة الدجاج به تظهرُ على أعرافها نقاط صغيرة تشبه العفن..

جفف برونسكي العرق المتصبب من جبينه بمنديلٍ ملوّن، وقال:

- ما هو السبب برأيكم يا بروفيسور في الكارثة الحاليّة؟

تعجّب برونسكي لجهل البروفيسور، وأخرج من حقيبته ورقة من صحيفة «الإزفسيتا»، وسأل:

- كيف لم تقرأ أيها البروفيسور؟

أجاب بيرسيكوف وتراجع:

- إنني لا أقرأ الصحف.

فسأل ألفريد بلطافة:

- لكن لماذا يا سيّدي؟

أجاب بيرسيكوف دون أن يفكّر:

- لأنها تكتب أشياء تافهة!

عاد برونسكي يسأل هامساً هذه المرّة وهو يقلب ورقة الجريدة:

- كيف تقول ذلك أيّها البروفيسور؟

سأل بيرسيكوف وقد نهضَ عن كرسيّه:

- ما الذي حدث؟!

لمعت عينا برونسكي هذه المرّة، ووجّه إصبعه الحاد، المطلي بالمانيكير إلى عنوان عريض جداً يمتد على طول الصفحة:

«**وباء يصيب الدجاج في الجمهورية**» سأل بيرسيكوف وهو يضع نظّارته على عينيه:

- كيف حصل ذلك؟

الفصل السادس


MOHAMED KHATAB


MOHAMED KHATAB


MOHAMED KHATAB

موسكو في حزيران 1928

كانت مضاءةً، الأنوار تتراقص في جنباتها، تنطفئ ثم تشتعل من جديد، الأضواء البيضاء المنبعثة من الباصات تغدو وترجع، أضواء الترامواي الخضراء، وعلى واجهة أحد المباني في ساحة تياترالنايا ـ المسارح امرأةٌ صاخبة الألوان تقفزُ ابتداءً من الطابق العاشر وتذرّ أحرفاً تشكّل كلماتٍ كهربائيةً ملوّنة: «**السُلْفَةُ العُمّاليّة**»، وفي الحديقة الصغيرة أمام مسرح البولشوي تجمّع الناس وراحوا يتدافعون، ثمّ تعالى صوتُ مكبّرات الصوت من أعلى مبنى المسرح:

– أَعطتْ لقاحاتٌ جديدة مضادة لأمراض الدجاج نتائج باهرة في معهد ليفورتوفسكي البيطري.. أعدادُ الدجاج النافقِ لهذا اليوم تقلّصت إلى النصف.

ثم تغيّرت طبقة الصوت المنبعث من المكبّرات، شيءٌ ما خشّ داخلها، أضاءَ خطٌّ أخضر فوق سطح المبنى ثمّ انطفأ. وعاد المكبّر يقولُ بصوتٍ عميق:

– شُكِّلَتْ لجنة طوارئ لمكافحة جدري الدجاج من اللجنة الشعبيّة للصحّة، واللجنة الشعبية للأرض، ورئيس قسم تربية المواشي الرفيق بتاخي - بوروسيوك، والبروفيسور بيرسيكوف، والبروفيسور بورتوغالوف... والرفيق رابينو فيتش! هناك محاولات جديدة - وصدر عن المكبّرات ما يشبه ضحك ابن آوى وبكاءه ثم تابع - لمكافحة انتشار جدري الدجاج!

توهّجت شوارعُ: تياترالني ونيفليني ولوبيانك بخطوط ضوئية بيضاء وأرجوانيّة، أشعةٌ تنبثق وتنبض، أبواق سيّاراتٍ تصدح.. غبارٌ يتصاعد، جموعٌ تتزاحم عند الجدران التي عُلِّقت عليها إعلاناتٌ كبيرةٌ مُضاءة بعواكس أنوار حمراء ساطعة:

«يُحذَّرُ السكان - تحت طائلة المسؤوليّة - من تناول لحم الدجاج وبيضِه في طعامهم، وسيتعرّض البائعون عند محاولتهم بيع الدجاج أو بيضه في البازارات للمساءلة القانونيّة، ومصادرة ممتلكاتهم كلها. يُطلب من المواطنين الذين يملكون بيض الدجاج أن يسلّموه إلى أقرب مركز شرطة».

على الشاشة الضوئيّة المثبّتة أعلى بناء «الجريدة العمّالية» ظهرت صور دجاجات مرصوصةٍ على بطونها، وترتفع أكواماً حتى السماء، بعضها مشويٌّ أخضر اللون، وبعضها نيء، تُقطّع وتمزّق، ثمّ تُرش بالكيروسين بواسطة خرطوم، وبعد ذلك يرتفع لهبٌ أحمر يغطي الشاشة، ويتصاعد دخانٌ كثيف، ثم تنبثق كتابة ضوئية: «حرق جثث الدجاج في خودينك».

بدت الإعلانات الموضوعة على حافة المحال التجارية، والتي تقول: «بيضٌ للبيع، النوعية مكفولة!» وكأنها تشوّه فاترينات

تلك المحلات المضاءة جيّداً، والتي تعمل حتى الثالثة صباحاً مع استراحتين فقط للغداء والعشاء، وغالباً ما كانت سيارات الإسعاف ببوقها المعروف تقلقُ المارة، وهي تتجاوز باصات الركاب، وشرطة المرور، وكان يُسمَع همس أحدهم بين الجموع:

– أُتخِمَ بالبيض الفاسد!

أمّا مطعم «أمبير» الشهير في العالم كلّه، المتلألئ وسط منطقة بتروفسك المضاءة بدورها بالمصابيح الخضراء والبرتُقاليّة، فقد وضع على طاولاته إعلانات صغيرة مكتوبة على ورق مقوّى ملوّث بنقاط الليكيور*: «حسب التعليمات: لا يوجد بيض مقلي. استلمنا محاراً اصطيد حديثاً!»

في الإيرميتاج أضاءت المصابيح الصينيّة بكآبة، مثل الخرز وسط خضرةٍ اصطناعيّة، بينما كانت أضواء المسرح الغنائيٍ تبهر العيون، والمطربان شرامس وكارمانتشيكوف ينشدان شعراً نظمَهُ آردو وآرغويف: «آه يا أمي ماذا سأفعل دون بيض؟؟»

وأطلق مسرح المرحوم فسيفولود ميرخولد ـ الذي استشهد، كما هو معروف عام 1927 أثناء عرض مسرحيّة بوشكين «بوريس غودونوف»، جرّاء انهيار ديكور المسرح ولوحاته ـ لوحةً كهربائية متحرّكة، متعدّدة الألوان، تُعلن عرض مسرحيّة «روح الدجاج» من إخراج تلميذ ميرخولد، المخرج المعروف كوختيرمان، وإلى جانب المسرح تلألأ ضوء إعلاناتٍ أخرى تُظهِرُ جسد امرأةٍ نصف عارية،

---

* الليكيور: مشروب روحي حلو المذاق، بطعم الفواكه المختلفة أو القهوة أو سوى ذلك /المترجمان/.

على خشبة مسرحٍ مكشوفٍ خضراء، وعاصفة تصفيق الجمهور تواكب عرض مسرحيّة «الصيصان» للكاتب لينيتسيف.

وفي شارع تفيرسكوي، المضاء بالمصابيح الجانبيّة سارت قافلةٌ من حمير السيرك، تحمل لافتات برّاقة. وفي مسرح كورش بدأت إعادة عرض مسرحية «شانتكلير» لروستان.

الأطفال ـ بائعو الجرائد صاحوا بين السيّارات:

– اكتشافٌ مرعبٌ تحت الأرض! بولونيا تُعدُّ لحربٍ رهيبة!! تجارب البروفيسور بيرسيكوف المرعبة!!

في سيرك نيكيتن (سابقاً) قال المهرّج بوم المطلي بلون شاحبٍ مقيت، والواقف في الحلبة البنيّة ذات الحشائش الخضراء زكيّة الرائحة، للمهرّج بيم المتورّم جرّاء مرض جدري الماء:

– إنني أعرفُ سبب حُزنك!

فأجابه بيم بلكنةِ المهرّج:

– ما هو السبب؟

– السبب أنك طمرتَ ما لديك من بيض في التُراب، فاستطاعت شرطة المخفر رقم 15 أن تجده!

– هاهاها.. هاها. ضحكت جموع المتفرّجين حتى تجمّد الدمُ في عضلات وجوههم جرّاء السعادة والملل، وهفهفت الأشرطة والأدوات المعلّقة في قبعة أحد المهرّجين، اللذين صرخا معاً:

– آ آ.. ب.

فدخلت فرسٌ بيضاء مُعافاة، تحمل فتاة فائقة الجمال، متناسقة القوام، ترتدي سروالاً قرمزيّاً!

وفي تلكَ الأثناء كان بيرسيكوف المتوّج بالمجد، غير المتوقّع، يمشي وحيداً، نشيطاً في شارع موخافوي، باتجاه الساعة الضوئيّة، في ساحة مانيج، لا يلتفت إلى أحد، ولا ينتبه إلى شيء، غير آبهٍ بدفعات بائعات الهوى الهادئة، وهمساتهن اللطيفة. شارداً ومغموراً بأفكاره، اصطدم بيرسيكوف بشخص غريب الهيئة، يلبس ثياباً من طرازٍ عتيق، فارتطمت يدُهُ بأخمصِ مسدس يضعُهُ الرجل في حزامه.

قالَ بيرسيكوف:

– يا للشيطان! اعذرني!

أجابه الشخص بصوتٍ مقيت:

– قبلت اعتذارك.

وذابَ الاثنان بين جموع الناس. ونسيَ البروفيسور المتّجه إلى شارع بريتشستنيك، حيث يسكن، حادث الاصطدام فوراً.

الفصل السابع



روكك

من غير المعروف: هل كانت لقاحات معهد ليفورتوفسكي البيطري ناجعة؟ وهل استطاعت فرق مدينة سمارا المساعدَة؟ وتلك الإجراءات الطارئة المتخذة فيما يخصُّ بائعي البيض في مدينتي كالوغا وفورونج هل كانت مصيبة ومجدية؟ وهل عملت لجنة موسكو للطوارئ بنجاح؟، لكن المعروف جيداً؛ أنّه بعد اللقاء الأخير بين بيرسيكوف وألفريد برونسكي والحديث الذي دار بينهما عن الدجاجِ، أصبح كل شيء في اتحاد الجمهوريات الروسيّة نظيفاً تماماً، لم يبقَ إلا بعض ريش دجاجٍ متناثرٌ في فناء هذا البيت أو ذاك من بيوت مدن الأقاليم، مثيراً الدموع في العيون، وفي المشافي تماثَلَ إلى الشفاء آخر البخلاء؛ الذين انتهى بهم الأمر إلى حالاتٍ من الإسهال المدمّى. لحسن الحظ لم يزد عدد الموتى في الجمهوريّة كلها عن الألف. ولم تصاحب ذلك حالات

اضطرابٍ عاصفة، ما عدا ظهور رسول في مدينة فولوكالامسك أعلن أن وباء الدجاج هذا سببُه القوميسارِيّاتُ* الجديدة، لكنّه لم يُصب حظاً كبيراً من النجاح، وما عدا حوادث ضرب رجال الشرطة في بازار فولوكالامسك بسبب مُصادرتهم دجاج النساء المُسنّات، وتحطيم زجاج نوافذ قسم البريد في المدينة نفسها. ومن حسن الطالع أن السلطات المحليّة اتخذت جملة إجراءات نتج عنها:

أولاً: توقّف نشاطات الرسول.

ثانياً: تركيب زجاج جديدٍ لنوافذ قسم البريد.

ولقد توقف وباء الدجاج من تلقاء نفسه عندما وصل شمالاً إلى أرخانغلسك وسيومكين وفيسيلك، فلا طريق هناك، ولا يُرى الدجاج في ذلك البحر الأبيض! وتوقف أيضاً دون تدخل أحد حين وصل مدينة فلاديفوستوك، فلا شيء بعدها إلا المحيط. واختفى أيضاً في الجنوب البعيد؛ في مناطق أوردوبات، كارابولاك، دجولف، أمّا في الغرب فقد تسمّر بشكل عجيب عند الحدود الرومانيّة والبولونيّة؛ هل كان الطقس مختلفاً هناك يا تُرى؟ أم كان ذلك بسبب الإجراءات التي اتخذتها تلك الحكومات المجاورة، المهم أن الوباء توقف هناك ولم يتابع الزحف. ضجّت الصحافة الأجنبية بالداءِ غير المسبوق في التاريخ، بينما عملت حكومة الجمهوريات السوفيتيّة دون إثارة أي ضجّة ودون توقّف. بعد ذلك تغيّر اسم لجنة الطوارئ لمكافحة جدري الدجاج إلى لجنة

---

* القوميسار: نوع من المسؤوليّة المحليّة، ظهر بعد الثورة 1917 /المترجمان/.

الطوارئ لرفع مستوى تربية الدجاج وتحسينها، وازداد عدد أعضاء اللجنة إلى ستة عشر رفيقاً وتأسس «دوبروكور»[*]، وضمّ مجلس إدارته بالإضافة إلى مجموعة من الرفاق، العضوين الفخريين: بيرسيكوف وبورتوغالوف، وظهرت صورهم في الصحف، وكتب تحتها عبارات مثل: «صفقات كبيرة لشراء البيض من الخارج» و«السيد يوز يريد أن يُفسد حملة البيض»، وأثار في تلك الأثناء المقال الساخر السام للصحفي كوليتشكين ضجّةً كبيرة في موسكو، وكان المقال قد انتهى بالكلمات التالية: «لا تطمع في بيضنا يا سيّد بوز ـ فلديك بيضاتُك الخاصة!».

أُنهكَ البروفيسور بيرسيكوف تماماً في العمل الجديد في الأسابيع الثلاثة الأخيرة. أخرجته حوادثُ الدجاج عن خطّه العلمي المعتاد، وحمّلته عبئاً إضافياً ثقيلاً؛ كان عليه أن يعمل حتى وقت متأخر من الليل في اجتماعات لجان الدجاج، ويجري لقاءات مطوّلة مع ألفريد برونسكي والميكانيكي السمين، ويقوم مع البروفيسور بورتوغالوف والأستاذ المساعد إيفانوف وبورنغارت بتشريح طيور الدجاج، ومراقبتها تحت المجهر، بحثاً عن حبيبات الجدري. ثمّ كان عليهم أن يكتبوا خلال ثلاث أمسيات كُتيّباً عن «تغيّرات الكبد عند الدجاج المُصاب بالجدري».

---

[*] كلمة مركّبة من مفردتين: دوبرو ـ كور، وهي تعني على الأرجح «الدجاج المحسّن» أو «الدجاج الجيّد». /المترجمان/

عمل بيرسيكوف في مجال الدجاج دون أية رغبة شخصيّة، وبدا الأمر واضحاً لمن ينظر إليه، كان بالُه مشغولاً كلياً بقضيّة أخرى، مهمّة وأساسيّة، وإن كان وباء الدجاج قد ألهاهُ عنها، إنّها قضية الشعاع الأحمر. كل ذلك حصلَ على حساب صحّته المُتعبة، على حساب نومه، وأكله، فأصبح يغفو بشكل دائم على كرسيّه الكبير في مكتبه ضمن المعهد، بعد أن يمضي ما تبقيه له اللجانُ من لياليه مُنكبّاً على الحُجرة الصغيرة، التي يتم توليد الشعاع فيها، وعلى المجهر.

هدأت الأمور نهاية شهر تموز، واستقر عمل اللجنة التي غُيِّر اسمها، وعاد بيرسيكوف إلى عمله الذي انقطع عنه. كانت المجاهر مزوّدة بمواد جديدة، ونمت بشكل عجيب بيوض السمك والضفادع في الحُجرة الصغيرة تحت تأثيرِ الشعاع. وأُحضِر من مدينة كينيغسبرغ بالطائرة زجاجٌ تمّت التوصية عليه بمواصفات خاصة، وشيّد الميكانيكيون في الأيام الأخيرة من شهر تمّوز حُجرتين كبيرتين تحت إشراف إيفانوف، فوصلت مساحة الشعاع من مصدر انبعاثه، مساحة علبة سجائر، ليبلغ قطره في نهاية الأنبوب حوالي المتر. فرك بيرسيكوف يديه سعيداً، وأخذ يحضِّر لتجربة ما؛ سريّة ومعقّدة، اتصل في البداية هاتفياً بمفوّض اللجنة الشعبيّة للتعليم، فنقلتْ السماعة نقيقاً يؤكد تقديم كل مساعدة لازمة. ثمّ طلب بيرسيكوف الرفيق بتاخا ـ بوروسيوك رئيس قسم الثروة الحيوانيّة في اللجنة العليا، فلاقى من قبله اهتماماً كبيراً، وأكد له بتاخا أنّه سيبرق حالاً إلى برلين ونيويورك. بعد ذلك

اتصلوا من الكرملين يسألون كيف تسير الأمور عند بيرسيكوف، وأراد صوتٌ ناعمٌ ومهم أن يطمئن إن كان بيرسيكوف يحتاجُ سيارةً خاصة أم لا؟. أجابَهُ بيرسيكوف:

- لا، أشكرك، إنني أفضّل الانتقال بالترامواي!

- لكن لماذا؟.

سأل الصوت الخفي ممازحاً، كانوا يكلّمون بيرسيكوف إما باحترامٍ شديد وفزع، أو بلطف ومُمازحة، وكأنه طفل صغير، بالرغم من أنّه كان طفلاً كبيراً.

- لأنها أسرع. أجاب بيرسيكوف، فقال المتحدّث بالهاتف:

- كما ترغب.

مرّ أسبوع، وبيرسيكوف يبتعدُ أكثر فأكثر عن مشاكل الدجاج، وينكبُّ بكل قواه على دراسة الشعاع. أصبح شعرهُ أبيض بسبب قلة النوم والإرهاق، ورأسه شفافاً وخفيفاً، وصارت الدوائر الحمراء الآن لا تفارق عينيه، معظم لياليه صار يقضيها في المعهد.

ذات مرّة غادر ملجأ علم الحيوان، كي يُلقي محاضرة في قاعة ضخمة لأحد النوادي، في شارع برتيشتنيك، عن شعاعه وتأثيره على خلايا البيض. وكان الأمر انتصاراً كبيراً في مجال علم الحيوان.

في تلك القاعة الواسعة بدأت أشياء تتساقط من السقف جرّاء التصفيق الحاد، وكان ضفدعٌ ضخمٌ رطب بحجم قطّة، يربض في صحنٍ على طاولة زجاجية مجاورة للبروفيسور فوق المنصّة، ويتنفس بصعوبة.

كثيرٌ من الرسائل قذفت على المنصة، منها سبع رسائل حب، مزّقها البروفيسور فيما بعد، سحب بيرسيكوف رئيس النادي بقوّة إلى المنصّة ليحيي الجمهور، وانحنى بدوره مرتعشاً، كانت يداه مُتعرّقتين رطبتين، ربطة عنقه السوداء توضّعت على أذنه اليسرى، كانت أمامه في العتمة مئات الوجوه الصفراء، وصدور الرجال البيضاء، وفجأةً لمع بيت مسدّس أصفر، واختفى بسرعة خلف أحد الأعمدة البيضاء، لاحظهُ بيرسيكوف بصعوبة، ثمّ نسيه لتوّه.

حين خرج البروفيسور من القاعة، ونزل السلّم المُغطّى بسجادةٍ أرجوانية شعر فجأة بالدوار، وحجبتْ غيمةٌ سوداء الثريّا المضاءة في البهو عن عينيه، أحسّ بالاضطراب وبرغبة في الإقياء.. برائحة حريق، ودم يسري حاراً في رقبته، بيدٍ مرتعشة تشبّث بالدربزين.

تعالت من كل صوب أصوات قلقة:

– ما لكَ؟ هل أنت مريض فلاديمير إيباتيتش؟

أجاب بيرسيكوف:

– لا، لا، إنني مرهقٌ فحسب.. نعم.. أريدُ كأس ماء.

وكان يومٌ مشمسٌ جداً من أيام آب. نور الشمس الحاد أزعج البروفيسور وأعاقه عن العمل، فأسدل الستائر في مكتبه، وحده العاكس المثبّت جيداً، كان يرسل حزمة ضوء مركّزة على الطاولة الزجاجيّة، حيث تناثرت أدوات وقطع زجاجيّة، رفع بيرسيكوف ظهر الكرسي الدوّار، مرهقاً كان وهو يدخّن، نظر من خلال طبقات الدخان المتصاعد بعينين ميّتتين جرّاء التعب، ولكن راضيتين في حُجرة الاختبار المفتوحة، التي كانت ترفع حرارة

هواء المكتب الساخن أصلاً، وغير النقي... حيث تشعُّ حزمةٌ من الضوء الأحمر. قُرِعَ الباب، سأل بيرسيكوف:

– من هناك؟

صرّ الباب وبهدوء دخل بانكرات، شابكاً يديه، ممتقعاً، وهو يشعر بالرهبة من القدرة الإلهيّة، قال:

– هناك، لأجلكم أيّها البروفيسور.. جاء روكك[*].

بدا على وجه العالم تعبيرٌ يشبه الابتسامة، ضيّق حدقتي عينيه وقال:

– شيءٌ مثيرٌ للاهتمام، لكنني مشغول!

– هو يقول إنه يحمل إليكم ورقة رسميّة من الكرملين.

– روكك مع ورقة؟ انسجامٌ نادر، همس بيرسيكوف ثمّ تابع:

– أحضرهُ إليّ من فضلك!

أجاب بانكرات:

سمعاً وطاعة. واختفى خلف الباب.

بعد دقيقة عبرَ شخصٌ الباب ووقفَ في العتبة. استدار بيرسيكوف على كرسيّه، وحملق فوق نظّارته في الشخص القادم، ومع أن البروفيسور كان بعيداً عن الحياة المحيطة به، غير آبهٍ بها، فقد لفتت انتباهه سمةٌ مهمّةٌ في الرجل الماثل أمامه؛ كان ذا شخصية غريبة، قديمة الطراز، شخصية ربّما بدت مقبولةً لو

---

[*] هذه الجملة تعني بالروسيّة القدر أو المنيّة، ولهذا ارتبك المستخدم، وتطيّر من شخصٍ يحمل هذا الاسم! / المترجمان /.

تجوّلت في شوارع العاصمة عام 1919، وحتى بداية عـام 1924، لكن في عـام 1928 فـستكون شـديدة الغرابـة، ففـي الوقـت الـذي ارتدى فيه أكثر البروليتاريا تـأخّراً ـ أعـني الخبّـازين ـ جاكيتـات فرينش في شوارع موسكو، وهي موضة انتهت ـ علـى العمـوم ـ عـام 1924، كان القادم ما زال يلبس سترة من تلك الـتي ترتـدى علـى الوجـهين، وبنطالاً أخضر، وينتعل حذاءً تعلوه لفافات ساق عالية، وعلى خصرهِ تـدلّى مـسدسٌ ضـخم، قـديم الـصنع في بيـت جلـدي أصفر، وجه الرجل ترك انطباعاً سيئاً قبيحاً في نفـس بيرسـيكوف، بل في نفوس كل من يقابلونـه، عينـاه الـصغيرتان حـدّقتا في العـالم بدهشةٍ وتعجّب، تجـهّم بيرسـيكوف في الحـال. صـرّ بعنـف محـور الكرسي، حدّق في الرجل هذه المرّة عبر زجاج نظّارته، وسأله:

– معك ورقة رسميّة؟! أين هي؟

صُعِقَ القادم بما شاهده ـ على ما يبدو ـ ومع أنّه لم يكـن ممّـن يرتبكون، فقد أصيب بالارتبـاك، وكـان بإمكـان النـاظر إليـه أن يخمّن أن سبب ارتباكه هـو المكتبـة ذات الاثـني عـشر رفّـاً الـتي تُلامس السقف وتنوء بالكتب، ثمّ حُجـرات الاختبـار، الجهنميّـة حيـث يلتمـعُ شـعاعٌ أحمـرٌ قـانئ يتنـاثر علـى زجاجهـا، حتـى بيرسيكوف نفسه بدا في موقعه، نصف المظلم على كرسيّه المتحرّك غريباً ومُكبَّراً من خلال الشعاع المرتّد عن العـاكس. حملـقَ الرجـلُ في البروفيـسور بنظـرةٍ تتطـايرُ منهـا شـرارات الاحـترام، والثقـة بالنفس، ولم يقدّم له أية ورقة:

– أنا ألكسندر سيميونوفيتش روكك!

– وليكن؟ ما الذي يعنيني أنا؟!

فشرح القادم:

ـ عُيّنتُ رئيساً لسوفخور* «الشعاع الأحمر».

– وإن يكن!

– لقد جئتكم يا رفيق بأمر سري.

– أنت تثير فضولي، لكنْ اختصر ما استطعت!

فكّ القادم أزرار سترته، وأخرج القرار المطبوع على ورقٍ فاخر، وقدّمه إلى بيرسيكوف، ثمّ جلس على الكرسي الدوّار دون استئذان.

صاح بيرسيكوف بكره:

– لا تدفع الطاولة.

التفتَ الرجلُ بفزع إلى الطاولة، فشاهد على الطرف البعيد منها عيني حيوان راسب في قاعٍ مظلم رطب، كانتا كالزمرّد، والبردُ ينبعثُ منهما. نهض بيرسيكوف مباشرةً بعد أن قرأ الورقة، اندفع تجاه الهاتف. بعد ثوان راح يتكلّم بسرعةٍ وعصبيّة:

– عفواً!.. لا أستطيع أن أفهم.. كيف يمكن ذلك؟ أنا.. دون موافقتي واستشارتي.. الشيطان وحده يعرف ماذا يمكن أن يحصل!

استدار الغريب على الكرسي ممتعضاً جداً وحاول أن يقول:

– عفواً.. أنا رئيـ...

لكن بيرسيكوف أشار له بإصبعه التي تشبه الخطّاف، وتابع حديثه:

---

* السوفخور: مزرعة تعاونية.

- اعذرني لا أستطيع أن أفهم.. أنا في النهاية أرفض مطلقاً. لا يمكن أن أسمح بإجراء التجارب على بيض الدجاج، قبل أن أجرّب ذلك بنفسي.

نقيقٌ كان يصدر من سمّاعة الهاتف، ومن بعيد بدا واضحاً أن الصوت يتعامل مع بيرسيكوف كطفل، وانتهت المكالمة بأن قذف بيرسيكوف سمّاعة الهاتف بقوّة في مكانها، وقال وهو يتّجه إلى الجدار:

- سأغسل يديّ تماماً من الموضوع!!

عاد إلى الطاولة، أخذ الورقة عنها، قرأها من الأعلى إلى الأسفل، من خلال نظارته، ثمّ من الأسفل إلى الأعلى ولكن من خلال النظارة هذه المرّة، نادى:

- بانكرات!

ظهر بانكرات في الباب، وكأنّه صعد على مدرّج إلى الأوبرا، حدّق بيرسيكوف به وصرخ:

- اخرج من هنا بانكرات!

واختفى بانكرات مثلما ظهر، دون أن تبدو عليه علائم الاستغراب!

التفتَ بيرسيكوف إلى هذا الدخيل وقال:

- اسمح لي.. مع احترامي. هذا ليس شأني على العموم. ولا يثير اهتمامي.

لم يزعج البروفيسور القادمَ بتاتاً، لكنّه أثار دهشته واستغرابه فسأله:

– أقدّم اعتذاري.. لكن ألستَ رفيقاً؟!

دمدمَ بيرسيكوف عابساً:

– ما بكم جميعاً ليس على ألسنتكم إلا «رفيق».. «رفيق»، نعم رفيق!

فارتسمت على وجه روكك عبارة «إذاً...» وحاول أن يتكلّم:

– أعذر..

فقاطعه بيرسيكوف:

– حسناً أيّها السيّد: بإدارة هذه الكُرة المُحدّبة تستطيعون تحريك العدسة وإعادتها إلى وضعيتها ـ كبس بيرسيكوف غطاء الحُجرة، كانت تشبه حُجرة الكاميرا:

– يمكنكم تجميع الحزمة بتحريك العدسة السفلية ذات الرقم (1). رقم (2) هي المرآة ـ أطفأ بيرسيكوف الشعاع ثمّ أشعله من جديد وكان مصوّباً نحو أرض الحُجرة المصنوعة من الصوف الصخري ـ على أرض الحجرة حيث يسقط الشعاع يمكنكم أن تضعوا ما تشاؤون وتجرون التجارب.. الأمر في غاية السهولة أليسَ كذلك؟!

أراد بيرسيكوف أن يعبّر عن سخطه واحتقاره، لكنّ المتطفّل لم يَلحظ ذلك، بل حدّق طويلاً وباهتمامٍ شديد في حُجرة الاختبار.

تابع بيرسيكوف:

– لكنني أحذّركم، يجب ألا يضعَ أحدكم يده تحت الشعاع، لأنه حسب ملاحظتي، يُحرّض على نمو نوع من الخلايا..! هل هي خلايا حميدة، أم خبيثة؟ هذا ما لم أستطع حتى الآن تحديده.

أخفى روكك يديه خلف ظهره فسقط بيت المسدّس على الأرض، حدّق بيدي البروفيسور، كانتا محترقتين باليود، واليُمنى منهما ملفوفة بالشاش عند المعصم.

– كيف حصل ذلك يا بروفيسور؟

أجابَ البروفيسور بامتعاض:

– يمكنك شراء قفّازات بلاستيكية من محل «شغاب»، حي كوزنيتسك.

ثمّ حدّق في عينيه تماماً:

– من أين أتيت؟ ولماذا أنت؟

غضب روكك أخيراً وقال:

– عفو...

– أخيراً يجب أن أفهم ما الذي يحدث؟ لماذا تُصرّ على هذا الشعاع؟!

– لأن الأمر على درجةٍ مذهلةٍ من الأهميّة!

– هكذا إذاً! درجة مذهلة من الأهمّية، بانكرات تعال إلى هنا!

وظهر بانكرات بسرعة، قال البروفيسور:

– انتظر قليلاً يا بانكرات، ما زلتُ أفكّر!

اختفى بانكرات للتو. تابع بيرسيكوف:

– لا أستطيع أن أستوعب لماذا هذه السرعة والسرّية؟!

أجاب روكك:

– أنت يا بروفيسور لا تسمحُ لي أن أكمل كلامي، تعرفون جيّداً أن الدجاج كلّه قد نفق في الجمهورية.

– ماذا أفهم من ذلك؟ تريد إحياء الدجاج؟ ولماذا تفعل ذلك باستخدام شعاع غير مدروس حتى النهاية!

أجاب روكك:

– أيّها الرفيق البروفيسور. إنك لا تسمح لي أن أكمل حديثي، أريد أن أوضّح لك أن من الضروري إعادة إنتاج الدجاج وتربيته، لأنهم يكتبون عنّا في الخارج أشياء تافهة..

– دعهم يكتبون..

أجاب روكك حائراً وحنى رأسه:

– لكن تعلم..

– أتمنّى أن أعرف من صاحب فكرة تربية الدجاج ومن البيض حصراً؟!

– أنا صاحبها. أجاب روكك..

– هكذا إذاً.. لكن هل لي أن أعرف لماذا؟ ومن أين لك أن تعرف خصائص الشعاع؟

– كنتُ يا بروفيسور في محاضرتكم منذ أيّام..

– أنا لم أتصدّ بعد لموضوع البيض! لا زلت أفكّر!

– قال روكك بصورة مفاجئة وبثقة تامة:

– قسماً بالله سنتمكّن...! إن شعاعك معروف جداً، وباستطاعته أن يفقّس فيلةً، وليس دجاجاً فحسب!

قال بيرسيكوف:

– أتعلم؟! هل أنت عالم حيوان؟ لا؟ هذا مؤسف حقاً!.. كان يمكن أن تكون مُجرّباً جريئاً! نعم.. لكنك ستغامر.. وستفشل.. إنّك تضيّع وقتي!

– سنردّ لك الحُجرات، لكن ماذا تعني؟

– متى ستردّها؟

– عندما أفرّخ أول دفعة.

– إنك تتكلّم بثقةٍ عالية! حسناً إذاً.. بانكرات!

قال روكك مسرعاً:

– معي عدد من الأشخاص، وحماية خاصة!

مع حلول المساء كان مكتب بيرسيكوف خالياً تقريباً...

الطاولات حرّة، لا شيء على ظهورها، نقل رجال روكك ثلاث حجرات اختبار كبيرة، وأبقوا للبروفيسور حجرته الصغيرة الأولى، تلك التي بدأ تجاربه باستخدامها.

بدأ غسق تمّوز يُلقي بظلاله، وملأت الرطوبة المعهد، وانتشرت في الممرّ. من مكتب بيرسيكوف كانت تُسمَع خطواتٌ موزونة، كانت تلك خطواته، وهو يقيس المكتب من الشبّاك حتى الباب، دون أن يحفَل بالعتمة فيشعل النور.. أمرٌ غريب يحدث، تملّك الناس القاطنين في المعهد وحتّى الحيوانات مزاجٌ عكر، لا تفسير له. أمرٌ ما دفعَ الضفادع كي تبدأ حفلةً موسيقية خاصة تنذرُ بالشؤم. حاول بانكرات أن يقبض على ضفدعٍ فارٍّ، يقفزُ في الممر، وعندما أمسك به، وشى شكله وحركة عينيه بأنه لا يلوي إلا على الفرار.

في ظلمة الغسق رنَّ جرس مكتب بيرسيكوف، فظهر بانكرات حالاً في العتبة، كان المنظر غريباً: وقف العالِمُ وحيداً وسط المكتب، يحدّق في الطاولات، سَعَلَ بانكرات وتسمّر في مكانه.

قال بيرسيكوف وهو يُشير بيده إلى إحدى الطاولات الفارغة:

– انظر بانكرات!

ارتعب بانكرات، وخيّل إليه في الظلام أن عيني البروفيسور ممتلئتان بالدمع، كان ذلك غريباً ويبعث على الخوف!

أجاب:

– نعم يا سيّدي. فكّر: «ليتكَ صرختَ بي غاضباً».

كّرر بيرسيكوف وشفتاه ترتجفان مثل طفلٍ نزعوا منه دميته المحبوبة:

– انظر ما الذي فعلوه!

ثم تابعَ بعد أن استدار نحو النافذة:

– أتعلم عزيزي بانكرات... زوجتي التي غادرتني منذ خمسة عشرَ تماماً إلى دار الأوبرا، وانتسبت إليها.. توفيت.. هذا ما عرفته يا عزيزي.. بعثوا إليّ رسالة..

نقّت الضفادع احتجاجاً، ولفّت العتمةُ البروفيسور، يا لها من ليلة! موسكو.. مصابيحُ بيضاءُ كرويّة أضاءت في مكانٍ ما، خلف النوافذ.. شعر بانكرات بالارتباك، حارَ.. رفع يديه إلى صدره بخوف! تمتم البروفيسور بصعوبة وهو ينفض يده:

– اذهب بانكرات، اذهب إلى النوم يا عزيزي الطيّب!

حلّ الليلُ تماماً، خرج بانكرات من المكتب على رؤوس أصابعه، في غرفته الصغيرة غرس يديه في الثياب المرميّة في الزاوية. أخرج زجاجة فودكا روسيّة، رفعها إلى فمه وشرب منها مقدار كأس كبيرة! أكل بعد ذلك قطعة خبزٍ مع الملح، هدأ روعَهُ قليلاً، وأصبحت عيناه أقل حُزناً.

في وقت متأخّر، حوالي منتصف الليل، قال بانكرات وهو يجلس حافياً على الصوفا في بهو المعهد السيء الإضاءة، للحارس المناوب ذي الخوذة الحديديّة، وهو يحك صدره من خلال قميصه الدمّور:

– ليته قتلني، كان ذلكَ أهون. أقسُم باللـ...

سأله صاحب الخوذة بفضول:

– هل بكى حقّاً؟!

أكد بانكرات:

– أقـ... ـسم... باللـ...

وافق الحارس قائلاً:

– عالِمٌ عظيم... معروف تماماً، أن الضفدعة لا يمكن أن تعوض عن زوجته.

وافقهُ بانكرات:

– ولا بأي شكل! ثمّ أضاف بعد أن فكّر مليّاً:

– أفكّر أن أنقل امرأتي إلى المعهد.. تعيشُ هنا.. لكنها لا تستطيع أن تحتمل هذه الكائنات المقرفة.

وافق الحارس:

- ماذا تقول؟ بالتأكيد قرفٌ لا يحتمل.

لم يُسمع من مكتب العالِم أي صوت. وظلّت مصابيحُهُ مُطفأة، لم يتسلل من تحت بابه أي شعاع نور.



الفصل الثامن



ما حصل في السوفخوز

حقيقةً، ليس هناكَ ما هو أجمل من هذا الوقت، وبخاصة في منتصف شهر آب حتى لو كنت في مقاطعة سمولينسك. صيف 1928 كان ممتازاً ـ كما هو معروف ـ فقد هطلت أمطار الربيع في موعدها من قبل، والآن شمسٌ ساطعة، موسمٌ ممتاز.. التّفاحُ نضج في المزرعة التي كانت تسمّى «مزرعة شيريميتوف».. اخضرّت الأشجار، اصفرّت الأرض المقسّمة إلى مربّعات. الإنسان يصبح أفضل حين يكون في حضن الطبيعة، حتى شخص مثل الكسندر سيميونوفيتش لن يبدو عندها على تلك الدرجة من القبح كما بدا في المدينة. ولا سيّما أنه لن يرتدي تلك السترة المُقرفة. كان وجهه نحاسيّاً بتأثير أشعّة الشمس، وظهر صدرُهُ من خلال قميصه المفتوح ممتلئاً بالشعر الأسود الكثيف، كان يرتدي سروالاً شراعيّاً، وقد أصبحت عيناه أكثر هدوءاً وطيباً.

هرع الكسندر سيميونوفيتش من جناحٍ كثير الأعمدة تعلوه لوحة حملت تحت نجمة كبيرة عبارة: **سوفخور «الشعاع الأحمر»** مباشرة إلى الشاحنة الصغيرة، المحمّلة بثلاث حُجرات سوداء تحرسها عصبة حماية مكوّنة من عدّة أشخاص.

انهمك الكسندر سيميونوفيتش مع مساعديه طوال اليوم في تركيب الحجرات، في حديقة شيريميتوف الشتويّة (سابقاً) المُغطاة بالزجاج.

عند حلول المساء كان كل شيءٍ جاهزاً، ثبّتوا الحجرات على القرميد، وكان الميكانيكي الذي قَدِمَ معها يفك، ويشدّ البراغي اللّماعة حتى إذا انتهى من ذلك أشعل الشعاع الأحمر الغريب، فانسكب على أرض الحجرات السوداء المُغطاة بالصوف الصخري.

أبدى الكسندر سيميونوفيتش اهتماماً كبيراً، جعله يصعد السُلّم بنفسه ويتأكد من صحّة الوصلات الكهربائية.

في اليوم التالي عاد من المحطّة، لتصل وراءه مباشرة الشاحنة الصغيرة نفسها، أفرغت ثلاثة صناديق خشبيّة حسنة الصُنع، ملفوفة بلوحات سوداء كُتب عليها بالأبيض:

Vorsicht: Eier!!

احذروا: بيض

قال الكسندر سيميونوفيتش دهشاً:

– لماذا أرسلوا إلينا كمّية قليلة؟

مع ذلك اندفعَ يفتح الصناديق. عمليّة إخراج البيض من الصناديق تمّت في البيت الزجاجي، وشارك فيها: الكسندر سيميونوفيتش، وزوجته السمينة جداً، مانيا، الأحدب حدائقي عائلة شيريميتوف سابقاً، الذي يعمل اليوم حارساً مُقيماً في السوفخور، وعاملة التنظيف دونيا. هنا ليست موسكو؛ الجميع يتحلّون بالبساطة والصداقة والطابع الأُسري.

راح الكسندر سيميونوفيتش ينظر بسرور إلى الصناديق، وهو يوزّع المهام، كانت تبدو هديّة ثمينة قيّمة تحت أشعة الغروب اللطيفة المنسكبة من خلال السقف الزجاجي. شدّ الحارس - ذو البندقية الغافية عند الباب - الغطاء المعدني لأحد الصناديق باستخدام الكمّاشة فصرّ المعدن، ثم فرقعٍ وانتثر الغبار. راح الكسندر سيميونوفيتش يدور حول الصناديق ضارباً الأرض بحذائه ومردداً بخوف:

– بهدوء من فضلك، كن أكثر حذراً، ألا ترى؟! هذا بيض!؟

شغّل الحارس المثقب وقال:

– لا تخف، الآن، تررر... ر... ر. وانتثرَ الغبار من جديد.

اتضح أن البيض غُلِّفَ جيّداً: تحت الغطاء الخشبي وضعت طبقة من ورق البرافين، ثم طبقة من الكرتون العادي، فنشارة خشنة من الخشب، ثم طبقة نشارة خشبية ناعمة أطلّت منها رؤوس البيض.

قال الكسندر سيميونوفيتش مسروراً، وهو ينبش البيض:

– تغليف أجنبي، شتّان ما بينه وبين تغليفنا. مانيا كوني أكثر حذراً، ستكسرين البيض بهذه الطريقة!

أجابته زوجته:

– هل جُننت الكسندر سيميونوفيتش، تتكلّم وكأننا نعمل بالذهب! ما بك؟ هل هذه أوّل مرّة أرى فيها بيضاً طوال حياتي؟! آو.. ما أكبرها!!

عقّب الكسندر سيميونوفيتش وهو يضع البيض على الطاولة الخشبيّة:

– بيض مستورد! ليس مثل بيضنا الذي لا يزيدُ حجماً عن بيض الرجال! إنها ألمانية.. فليأخذها الشيطان!

أكد الحارس، وهو ينظر بإعجاب:

– نعم هذا أكيد!

قال الكسندر سيميونوفيتش:

– لكنني لا أفهم لماذا هي وسخة هكذا! مانيا راقبي العمل. لا أريد توقّفاً، سأذهب لأجري مكالمة.

خرج الكسندر سيميونوفيتش من الفناء إلى مقر إدارة السوفخور.

رنّ جرس الهاتف مساءً في مكتب معهد علم الحيوان. رتّب بيرسيكوف شعره بيديه، واقتربَ من الهاتف. رفع السماعة، وسأل:

– مَن هناك؟

جاءه صوتٌ نسائي هامس: «سيكلّمونكم من الريف». أجاب بيرسيكوف بقرف:

– حسناً إنني أسمعك ـ خشّ شيءٌ ما في الهاتف، ثم سُمِع صوت ذكوري ممطوط، يقول بقلق:

– هل يجب غسل البيض يا بروفيسور؟

ارتجف بيرسيكوف، وأجاب:

– ماذا حصل؟ ماذا؟ عن ماذا تسأل؟ من أين تتكلّم؟

أجابت السمّاعة:

– من نيكولسك، مقاطعة سمولينسك.

– لا أفهم شيئاً، لا أعرف أحداً باسم نيكولسك. من معي؟

أجابت السمّاعة ببرود:

– روكك.

– أي روكك؟ آه.. نعم.. هذا أنت.. عمّ تسأل؟

– هل أغسلهم*؟ أرسلوا لي من الخارج بيض دجاج..

– لا أفهمك جيّداً؟

– «وسخين» بعض الشيء!

– ما هذا الخلط؟ كيف يمكن أن تكون البيوض «وسخين»؟ كيف تُعبّر؟ طبعاً يمكن أن يكون البيض وسخاً.. ربّما جفّ السَلْحُ عليه، أو أي مادة أخرى!

– لا حاجة «لغسلهم» إذاً؟

– طبعاً لا ضرورة لذلك.. ماذا؟ هل تريد ملء الحجرات بالبيض؟!

أجابت السمّاعة:

– نعم سأضعهم. تمتم بيرسيكوف بحقد:

– إم م م...

---

* يريد الكاتب أن يبين أن روكك جاهل، لا يُحسن حتى التعبير /المترجمان/.

- مع السلامة. وانتهت المكالمة.

ردّد بيرسيكوف بحقد عبارة «مع السلامة» على مسامع مساعده إيفانوف، وسأله:

- ما رأيك بهذا النوعٍ من الأشخاص بيوتر ستيبانوفيتش؟

ضحك إيفانوف قائلا:

- أكان هذا هو؟! يمكنني أن أتصوّر ماذا سينتجُ عن شواء البيض!

قال بيرسيكوف غاضباً:

- د... د... د.. تصوّرْ بيوتر ستيبانوفيتش. ممتاز! قد يكون تأثير الشعاع على ديتروبلازما بيض الدجاج، مماثلاً لتأثيره على بلازما المخلوقات العارية، من الممكن جداً أن تفقس البيوض دجاجاً، لكنك تعلم أن ليس بمقدورنا لا أنا، ولا أنت، أن نتنبأ أي دجاج سيكون هذا!! ممكن أن نحصل على دجاج لا يصلح لأي شيء! لا للأكل ولا لغيره! قد ينفق خلال يوم.. يومين، قد لا يستطيع هذا الدجاج أن يقف على قائمتين! ربَما كانت عظامه هشّة أو طريّة؟!

دخل بيرسيكوف حالة من الانزعاجٍ الشديد والتوتّر. لوّح بكفّه، ضمّ أصابع يديه. وافق إيفانوف قائلاً:

- كلامك صحيح.

- هل يمكنك بيوتر ستيبانوفيتش أن تثق بأن هؤلاء الناس سينتجون جيلاً جديداً من الدجاج؟!

قد يفقس هذا الشخص دجاجاً عاقراً، دجاجاً يبلغُ حجمه حجم كلب، ولكنّه لا يتكاثر ولو بعد ألف عام.

وافق إيفانوف:

- نعم، لكن لا تحمّل نفسك مسؤوليّة ذلك!

تابع بيرسيكوف متألماً:

- يا لهذه الوقاحة، الصفاقة! وفوق ذلك عليّ أن أدرّب ذلك النذل ـ وأشار بيرسيكوف إلى الورقة التي أحضرها روكك، وكانت مرميّة على طاولة التجارب ـ كيف أدرّب ذلك الجاهل، إذا كنتُ أنا نفسي لا أملك إجابات كافية؟

سأل إيفانوف:

- هل كان الرفض ممكناً؟

اشتدّ غضب بيرسيكوف، أخذ الورقة ودفعها إلى إيفانوف. قرأها وضحك ساخراً، ثم قال بصيغة تعني الكثير:

- إم. نعم!!

- هل لاحظت؟.. منذ شهرين وأنا أنتظر بعض المتطلّبات، وحتى اللحظة لا علم ولا خبر! أما لهذا الدنيء فيستوردون البيض فوراً، ويقدّمون كل مساعدة.

- لن يخرج بأية نتيجة، فلاديمير إيباتيتش، سينتهي الأمر بأن يعيدوا الحجرات إليك.

- عسى أن يحدث ذلك سريعاً. إنّهم يؤخرون تجاربي.

- نعم هذا سيء للغاية. على فكرة، عندي أصبح كل شيء جاهزاً.

- هل استلمت البذلات الواقية الخاصة؟

- نعم اليوم.

هدأ روع بيرسيكوف قليلاً، وشعر بالانتعاش. قال:

– آها.. برأيي ينبغي أن نقفل غرفة العمليات تماماً، ونترك النافذة وحدها مفتوحة.

قال إيفانوف موافقاً:

– بالطبع.

– هل لدينا ثلاث خوذات؟

– ثلاث. نعم.

– هكذا إذاً. واحدة لك. لي. ولأحد الطّلاب. يمكن أن نختاره.

– يمكن أن نستدعي غرينموت ونكلّفه بالعمل.

– غرينموت. طالبك الذي يدرس السَمَنْدَل الآن، إم م.. لا بأس به، مع أنه لم يستطع في الربيع الماضي أن يجيبني: كيف تتكوّن الفقاعة السابحة عند عديمات الأسنان.

قال إيفانوف مُدافعاً:

– لا، لا بأس به.. إنّه طالب جيّد.

تابع بيرسيكوف:

– يجب أن نعمل ليل نهار. لكن ينبغي ببيوتر ستيبانوفيتش أن تتأكّد من الغاز! الشيطان وحده يعرف أولئك الكيميائيين. إنهم قادرون على إرسال أي قذارة على أنها غاز!

– لا، لا.. لقد اختبرتُ نوعيّة الغاز يومٍ أمس، يجب ألا نظلمهم فلاديمير إيباتيتش، إنّه غاز ممتاز جداً.

– هل جرّبت فعاليته على أي حيوان؟

– على ضفدع عادي. ما إن فتحت صنبور الغاز قليلاً حتى نفق مباشرةً. نعم فلاديمير إيباتيتش، علينا أيضاً أن نكتب رسالة إلى الجهات المختصة لتزويدنا بمسدّسٍ كهربائي.

– أنا لا أتقن استخدامه.

قال إيفانوف:

– دع الأمر لي. عندما كنّا في كليازم، كنّا نستخدمه على سبيل التسلية، كان أحد رجال الأمن جاري هناك. إنّه مسدّس رائع وضروري جداً.. يقتلُ دون ضجيج، ويصيبُ هدفه على بعد مئة خطوة تقريباً. كنا نصطاد باستخدامه الغربان.. وبرأيي سيغنينا عن استخدام الغاز في حال توفّره.

– إم م.. إم.. إنّها فكرة رائعة جداً. خطا بيرسيكوف إلى الزاوية، رفع سمّاعة الهاتف:

– أوصلني بهذه.. ما اسمها؟.. لوبيانكا * .

كانت أياماً حارة جداً، فوق المعتاد. وكان القيظ السميك الشفّاف يُرى بوضوح وهو ينصبّ فوق السهول، أما الليالي فخضراء جميلة مخادعة، ضوء القمر ألقى بجمال خلاب فوق أملاك عائلة شيريميتوف، جمال يصعب وصفه. القَصر ـ السوفخور الذي بدا سُكريّاً شعّ بدوره واهتزّت الظلال في الحديقة، بينما انقسمت المستنقعات إلى قسمين: أولهما مضاء بأشعّة القمر، والثاني معتمٌ

لوبيانكا: منطقة في موسكو، كانت مقرّاً للاستخبارات السوفييتيّة، وهي اليوم مقرّاً لوزارة الأمن الروسيّة. / المترجمان /.

دامس، فكان بالإمكان قراءة جريدة «الإزفستيا» في القسم الأوّل، ما عدا صفحة الشطرنج حيث الحروف صغيرة، لكن أحداً في مثل هذه الليلة لم يقرأ «الإزفستيا» على ما يبدو.. دونيا ـ عاملة التنظيف انطلقت إلى الحرج خلف السوفخور، وتبيّن أن سائق شاحنة السوفخور الصغيرة ذا الشارب الأشقر هناك أيضاً بمحض المُصادفة، ما الذي يفعلانه هناك، لا أحد يدري، لقد افترشا معطف السائق الجلدي، تحت شجرة الدردار غير الكثيفة، وفي المطبخ تناول المزارعان العشاء على ضوء المصباح، أما زوجة روكك فقد جلست في البلكون ذي الأعمدة رافلةً بمعطفها الأبيض وحالمةً في ضوء القمر.

في الساعة العاشرة مساءً، عندما أخذ السكون يخيّم على قرية كونشوفك الواقعة خلف السوفخور، امتزج منظر الطبيعة الرائع بنغمات الفلوت الناعمة الرقيقة، حتى بدا من الصعوبة بمكان أن تُعبّر عن شدّة ملاءمة تلك الأنغام للتحليق فوق الأحراج، فوق قصر عائلة شيريميتوف الكثير الأعمدة. واتحد صوت ليزا الضعيفة من «بنت البستوني» بصوت بولينا المتحمّسة في ثنائي رائع تسامى إلى مشارف القمر، كخيالات الماضي القديمة، ولكن الغريزة ـ بالرغم من كل شيء ـ تحنُّ للنظام الجميل المندثر.

وعزفت آلة الفلوت متنهّدةً:

ينطفئون.. إنهم ينطفئون

سكنت الأحراج، وأنصتت دونيا الغانية، كحوريّة غابة، وقد لامس عنقها عنق السائق الخشن الأشقر. قال وهو يشدّ خصرها بيده القويّة:

– ابن العاهرة، يعزف بشكل جيّد!

لم يكن عازف الفلوت إلا رئيس السوفخور نفسه: الكسندر سيميونوفيتش روكك، والحق أنّه كان يعزف بتألّق. يوماً ما كانت آلة الفلوت تمثّل اختصاص الكسندر سيميونوفيتش، فقد عمل حتى عام 1917 في فرقة الملحّن بيتوخوف الغنائيّة، عازفاً على الفلوت، فملأ بهو دار سينما «الأحلام السحريّة» في مدينة يكاتيرنيا سلافا أنغاماً متناسقة عذبة. لكن عام 1917 العظيم، الذي حطّم سُلّم الأعمال الوظيفيّة لمعظم الناس، قذف الكسندر سيميونوفيتش في طريق جديد؛ ترك «الأحلام السحريّة»، ومعشر النجوم في بهو دار السينما، واندفع في البحر المفتوح للحرب والثورة، فبدّل الفلوت بالمسدّس المُهلك. تقاذفته الأمواج طويلاً، من القرم إلى موسكو، إلى تركستان، وصولاً إلى فلاديفوستوك. كانت الثورة ضروريّة جداً كي تظهر مواهب الكسندر سيميونوفيتش ساطعةً. واتضح بالفعل أنه إنسانٌ عظيم، ليس بهو «الأحلام» مكانه المناسب. ودون الدخول في التفاصيل! نقول إن نهاية عام 1927 وبداية 1928 وضعتا الكسندر سيميونوفيتش في توركستان* فعمل في البداية رئيس تحرير جريدة كبرى، واشتهر كعضو اللجنة الزراعية العليا، بأعماله الفريدة في تطوير منطقة توركستان. وفي عام 1928 قدم روكك إلى موسكو، حيث حصل على التقاعد الذي يستحقّه. وقد قدرته

* توركستان: منطقة آسيا الوسطى، التي تضم حالياً أوزبكستان، كازاخستان، قيرغيزستان / المترجم /.

اللجنة العليا لتلك المؤسسة التي يحمل بطاقتها في جيبه بشرف، ومنحته وظيفةً هادئة فخريّة، لكن هيهات.. هيهات!.. فعقل الكسندر سيميونوفيتش المتّقد في قمّة الجمهوريّة لم يهدأ!!، وما أن سمع باكتشاف بيرسيكوف في موسكو حتى ولدت لديه في غرفة فندق «باريس الحمراء» فكرة إعادة إحياء الدجاج خلال شهر واحد في أنحاء الجمهورية، بمساعدة شعاع بيرسيكوف. استمعت لجنة تربية الحيوانات لروكك، ووافقت على فكرته، لذلك قدم حاملاً ورقةً مهمّة إلى عالم الحيوانات الغريب الأطوار.

كان الحفل الغنائي فوق الحديقة والحراج والمياه الزجاجيّة قد اقترب من نهايته. عندما حدث شيءٌ مفاجئٌ وضع له حداً قبل أوانه. ففي الوقت الذي كان من المفترض أن تخلد فيه كلاب قرية كونتسوفكا للنوم اندفعت فجأة تنبح نُباحاً لا يطاق، تحوّل تدريجياً إلى عواءٍ مُبرِّح، انتشر في السهول المجاورة جميعها، ثم انطلق فجأةً نقيق ملايين الضفادع في المستنقعات، حتى تهيّأ لمن يستمع أن ليلةً سحريّة تطغى من تلك الليالي التي يستحضر فيها الجن!

ترك الكسندر سيميونوفيتش الفلوت وخرج إلى الشرفة:

– مانيا.. هل تسمعين؟ ما الذي أصاب هذه الكلاب اللعينة؟ هل جنّت مثلك؟

أجابت مانيا وهي تنظر إلى القمر:

– من أين لي أن أعرف؟

قال الكسندر سيميونوفيتش:

– هيّا مانتشكا[*] ، تعالي نذهب فنرى ما هو وضع البيض!

– أقسم بالرب الكسندر سيميونوفيتش أنك «دوّختنا» بدجاجاتك وبيضك! ارتح قليلاً يا رجل!

– لا مانتشكا، فلنذهب!

كان المصباح ذو الشكل الكروي يسطع في الحديقة الزجاجية، وصلت في اللحظة نفسها دونيا بوجهٍ حار، وعينين برّاقتين.

فتح الكسندر سيميونوفيتش كوّة المراقَبة الزجاجية بلطف، وأخذ الجميع ينظرون إلى داخل الحُجرة، كانت البيوض تتوضّع بصفوف متناسقة على الأرض المغطّاة بصوفٍ صخري أبيض، والبقع الحمراء تعلوها، كل شيء في الحُجرة هادئ ما عدا الكرة ذات الـ 15000 شمعة، التي تئن أنيناً خافتاً.

قال الكسندر سيميونوفيتش بحماسة وهو ينظر داخل الحُجرة تارةً من الجانب، وأخرى من الكوّة الزجاجية، وثالثة من فتحات التهوية العلويّة:

– آخ.. سأفقّس صيصاناً! سترون.. ماذا؟ هل تظنون أنني لن أفقّس؟!

قالت دونيا باسمة:

– أتعلم الكسندر سيميونوفيتش أن الرجال في كونتسوفكا يقولون إنك ضد المسيح، وإن بيضك شيطاني، وآلتك هذه شيطانية، وهم ينوون قتلك.

---

[*] لفظ تحبب من مانيا / المترجمان /.

ارتجفَ الكسندر سيميونوفيتش والتفت نحو زوجته ممتقع الوجه:

– ماذا تقولين؟ هذا هو الشعب! ما الذي يمكن أن نفعله لهذا الشعب؟ ها؟ مانتشكا سأدعو الناس إلى محاضرات! غداً سألتقي عمّال القريّة، سألقي عليهم خطاباً.. يجب العمل بتفانٍ، وإلا فلن يكون لدينا هنا إلا مكان تعيش فيه الدببة!

قال الحارس الذي افترش معطفه عند باب البيت الزجاجي:

– جهل!!

امتاز اليوم التالي بأنه حمل أموراً غريبة لا تفسير لها. فالأحراج التي اعتادت أن تستقبل شعاع الصباح الأوّل بزقزقة الطيور العالية قابلت الصباح الباكر هذا اليوم بهدوء تام، وشعر الجميع بذلك، كان هدوءاً، كذاك الذي يسبق العاصفة، لكن ما من عاصفة، ولا أثر لها. صارت الأحاديث الدائرة في السوفخوز غريبة وتحتمل أكثر من معنى بالنسبة لألكسندر سيمونوفيتش، ولا سيّما بعد حديث العم الملقّب كوزي زوب الحكيم، المثير للفتن، من قرية كوزنتسوفك، الذي أكّد أن الطيور كلّها تجمّعت في الأحراج. وعند الفجر هاجرت من أراضي شيريمتوف إلى مكان ما في الشمال. كان هذا هو الغباء عينه، فانزعج الكسندر سيميونًوفيتش كثيراً، وأمضى نهاره يتصل هاتفياً بمدينة غراتشوف، حيث وعدوه أخيراً أن يرسلوا خطيبين اثنين يتحدّثان إلى الفلاحين في مواضيع: الوضع الدولي ومسألة «الدجاج المُحسَّن».

لم يمرّ المساء كذلك دون مفاجآت، فإذا كنت الأحراج قد صمتت في الصباح، وبيّنت بوضوح كم هو الهدوء بين الأشجار مزعج ومثير للشك، وإذا كانت الظهيرة قد شهدت رحيل العصافير من أجواء السوفخوز إلى مكان ما، فإن المساء قد حمل هدوءاً تاماً إلى مستنقع شيريمتوفك، وقد بدا الأمر مدهشاً بحق، ففي المناطق المجاورة وعلى بعد أربعين فرسخاً كان نقيق الضفادع الشيريميتوفيّة مسموعاً دوماً ومعروفاً، أما الآن فكأن تلك الضفادع قد ماتت وما عادت الأصوات تصدرُ من المستنقع، حلّ سكون صامت، ويجب الاعتراف بأن الكسندر سيميونوفيتش انزعج كثيراً. أخذ الناس يتناقلون ما حدث ويفسّرونه بصورة غير مريحة، خلف ظهر الكسندر سيميونوفيتش. قال روكك لزوجته أثناء الغداء:

– في الواقع، هذا أمرٌ غريب، لا أستطيع أن أفهم ما الذي دفع هذه الطيور إلى الهجرة؟

أجابت الزوجة:

– من أين لي أن أعرف؟ قد يكون شعاعك هو السبب؟

أجاب الكسندر سيميونوفيتش بعد أن رمى الملعقة:

– أنت يا مانيا غبيّة جداً، مثل معظم هؤلاء الفلاحين، ماذنب الشعاع هنا؟

– لا أدري، اتركني بحالي!

مع المساء حدثت المفاجأة الثالثة، عادت الكلاب للنباح في كونتسوفكا، لكن بصورةٍ مختلفة، انتشرَ الأنين متواصلاً فوق السهول المُضاءة بأشعّة القمر، أنينٌ كئيبٌ شرير!

مفاجأة أخرى حدثت ذلك المساء، مفاجأة سارة هذه المرّة، جاءت مكافأة لألكسندر سيميونوفيتش، في الحديقة الزجاجيّة، وداخل الحجرات بدأ يُسمع قرعٌ متواصل داخل البيوض الحمراء: توك.. توك.. توك، في الأولى، ثم في الثانية، فالبيضة الثالثة وهكذا..

كان الطرق داخل البيض، طرق الفوز بالنسبة لألكسندر سيميونوفيتش، فقد نُسيت في الحال الأحداث الغريبة في الحرج والمستنقع. انطلق الجميع إلى الحديقة الزجاجيّة، مانيا ودونيا والناطور، والحارس الذي ترك بندقيته عند الباب.

سأل الكسندر سيميونوفيتش بانتصار:

– حسناً ماذا تقولون؟ ماذا تقولون الآن؟

مال الجميع وقرّبوا آذانهم من جدران الحُجرة الأولى.

تابع الكسندر سيميونوفيتش كلامه مسروراً:

– إنّها الصيصان تقرعُ بمناقيرها قشور البيض، ألا زلتم تعتقدون أنني لن أُنتج صيصاناً؟ تكلّموا؟ لا يا أعزائي ـ وطبطبَ على كتف الحارس لشدّة انفعاله ـ سأنتجُ صيصاناً لم تروا مثلها في حياتكم ـ وأضاف ـ راقبوا الآن الحُجرتين التاليتين، عندما يبدأ النقر هناك، اعطوني علماً بذلك!

أجاب الحارس ودونيا والناطور معاً:

– حسناً، حسناً.

استمرَ النقرُ في بيضات الحجرة الأولى، وكان منظراً مثيراً للاهتمام بالفعل، ولادة حياة جديدة داخل قشر البيض! جلس الجميعُ على الصناديق الخشبيّة الفارغة طويلاً، كيف يمكن لهذا

البيض الأحمر أن يفرّخ بتأثير ضوءٍ برّاق محيّر؟ انصرف الجميع للنوم في وقت متأخّر جداً، في الوقت الذي غطّت السوفخوز فيه ومحيطه عتمة أقرب إلى الخُضرة. كانت ليلة مُحيّرة، بل مخيفة، ومبعث ذلك عواء كلاب قرية كونتسوفكا الأقرب إلى الأنين.. ذلك الأنين الذي قوّض الصمت المخيّم، وظلّ مجهول السبب.

أمرٌ مزعجٌ. انتظر الكسندر سيمونوفيتشْ صباح اليوم التالي. بدا الحارس مرتبكاً جداً، وهو يضعُ يديه على قلبه ويقسم أنه لم ينم، ولم يلحظ ما يثير الريبة، كان يرددُ بإصرار:

- أمر غير غير مفهوم! لا علاقة لي فيه رفيق روكك.

فيجيبهُ الكسندر سيمونوفيتشْ هازئاً:

- شكراً لك، من كل قلبي أشكرك. ماذا تظن يا رفيق؟ لماذا برأيك أرسلوك إلى هنا؟ أرسلوك للحراسة!! لذلك قلْ لي أين ذهبت الصيصان؟ لقد خرجت من البيض، وغادرت. وهذا يعني أنك تركت الباب مفتوحاً، ففرّت! عليك أن تُحضر الصيصان إلي!

غضب أخيراً العسكري فقال:

- لم أذهب إلى أي مكان. أتظن أنني لا أعرف عملي؟ إنك تتهمني دون سبب رفيق روكك.

- أين اختفت إذاً؟

طار صواب العسكري:

- من أين لي أن أعلم؟ أنا لست هنا لحراسه البيض؟! إنما أُرسلتُ كي لا يقوم أحد بسرقة الحُجرات، وقد نفذت مهمّتي. ها هي ذي الحُجرات لستُ مُلزماً أن أركض خلف صيصانكم

وأعيدها، من أين لي أن أعرف أية صيصان فقست؟ ربّما لا تستطيع أن تلحق بها حتى وأنت تركب درّاجة هوائية؟!

تلعثم قليلاً الكسندر سيمونوفيتش وهو يهمُّ بقول شيء، تمتم، وبدت عليه الدهشة. كان الأمر غريباً بالفعل، ففي الحجرة الأولى التي وضعوا البيض فيها قبل الاثنتين الباقيتين، انكسرت البيضتان اللتان كانتا تحت الشعاع مباشرةً، وتدحرجت إحداهُما جانباً، وما زالت القشرة على أرضيّة الصوف الحجري، تحت الشعاع.

تمتم الكسندر سيمونوفيتش قائلاً:

– الشيطان وحده يعرف ما الذي حدث، النوافذ مغلقة، ومن خلال السقف لا يمكن للصيصان أن تطير. ثم رفع رأسه، ونظر إلى السقف، حيث لاحظ وجود فتحات واسعة في الزجاج.

قالت دونيا دهشة:

– ماذا الكسندر سيمونوفيتش؟! أتظن صيصانك قد طارت! إنها هنا في مكان ما تزقو. تسب.. تسب.. تسب.

وراحت تنادي الصيصان، وتبحث عنها في زوايا الحديقة الزجاجيّة بين بقايا الخشب والحشيش، لكنها لم تعثر عليها، ولم يستجب لنداءها أحد!

فتش أعضاء الفريق فناء السوفخوز ركناً ركناً خلال ساعتين متواصلتين ولكنهم لم يجدوا شيئاً! انتهى يوم متوترٌ للغاية، انضمّ الناطور إلى الحارس لحراسة الحُجرات، وتلقّى تعليمات مشدّدة جداً، منها أن ينظر في داخل الحجرات كل ربع ساعة، فإذا ما لاحظ أمراً ما، استدعى فوراً الكسندر سيمونوفيتش. جلس الحارس

متجهّماً عند الباب، واضعاً بندقيته بين ركبتيه. انشغلَ الكسندر سيمونوفيتش تماماً، فلم يتناول غداءَهُ إلا في الثانية بعد الظهر، ثم اضطجع ساعةً في المقيل السابق لشيريميتوف، الذي تلفه ظلالٌ باردة! بعدها أطفأ ظمأه بشراب الكفاس* المُصنّع في السوفخوز، ثمّ دخل الحديقة الزجاجيّة وتأكّد بأن كل شيء على ما يُرام.

انبطحَ الناطور العجوز على بطنه فوق قطعةٍ قماشيّة، وأخذ يراقب من خلال زجاج المراقبة، داخل الحجرة الأولى. الحارس ظل يقظاً، مسمّراً عند باب الحديقة الزجاجيّة.

وكان هناك أخبار جديدة: بدأ البيض في الحجرة الثالثة ـ وهو الذي وضع أخيراً تحت الشعاع الأحمر ـ يُصدر أصوات غريبة، تشبه النشيج.

قال الكسندر سيمونوفيتش مخاطباً الناطور:

– آخ.. إنها تنضج، نعم إنها تنضج، أراها الآن، هل ترى؟

أجاب الناطور بصيغةٍ ملتبسة وهو يهز رأسه:

– نعم، الوضع ممتاز.

جلس الكسندر سيمونوفيتش قليلاً عند الحُجرات، لكن البيض لم يفقس بوجوده، وقف، تجدّب، وأعلن أنّه لن يخرج من السوفخوز، لكنّه سيذهب لبعض الوقت إلى المستنقع القريب بغرض السباحة، فإذا ما حصل شيء عليهما أن يناديا على الفور. أسرع إلى غرفة النوم في القصر، وهي تحوي سريرين ضيّقين

---

* شرابٌ صيفي روسي يَصنَعُ من نقيع خبز الشوفان الأسود.

نابضيّين، عليهما شراشف بيضاء غير مرتّبة، أما أرضها فمليئة بالتفاح الأخضر، وبعض المواد الأخرى المُعدّة لطعام الصيصان القادمة! حمل المنشفة وفكّر: لماذا لا يأخذ الفلوت، فيعزف قليلاً بجوار ماء المستنقع، خرج من القصر حيويّاً واتجه صوب الماء، مشى نشطاً يلوّح بالمنشفة ويتأبّط آلة الفلوت. كانت السماء تصبُّ قيظها من خلال شجر الصفصاف، فاشتكى جسده طالباً الماء، بينما راح ينفض يديه من طفيليات الشجر التي التصقت بجلدهما.

فجأة سمع صوت خشخشة يصدر من أعماق الأعشاب، خشخشة كأنها تصدر عن أحدٍ يجرُّ خلفه غصناً طويلاً، شعر أن قلبه ينقبض بسرعة وبصورة مؤلمة، التفت إلى مصدر الصوت دَهِشاً، فمنذ يومين لم يصدر عن المستنقع أي صوت. هدأت الخشخشة وظهر خلف النباتات الطفيليّة المتشابكة سطح الماء راكداً تماماً، وسطح غرفة الاستحمام رماديّاً صافياً. سربٌ من اليعاسيب عبر أمام الكسندر سيمونوفيتش، كان يريد أن يستدير صوب الجسر الخشبيّة عائداً، حين تعالت الخشخشة من جديد، وأُضيفَ إليها هذه المرّة تجشّؤٌ قصير، شبيهٌ بانبثاق بخار وزيت من مدخنة قطار. شعر الكسندر سيمونوفيتش بالرهبة، وبدأ يتفحّص النباتات الطفيليّة الكثيفة. في هذه اللحظة سَمِعَ نداء زوجته. ظهرت بلوزتها البيضاء، ثم اختفت، ثم بانَت من جديد من خلال أشجار العلّيق، كانت تنادي:

– الكسندر سيمونوفيتش، انتظرني أنا أيضاً أريد السباحة.

كانت الزوجة تسرع نحو المستنقع، وما كان بإمكان الكسندر سيمونوفيتش أن يجيبها فقد تسمّر في مكانه ينظر أمامه، إلى

النباتات الطفيليّة الكثيفة. جذعٌ أخضر كالزيتون، مائل إلى الرمادي قليلاً. بدأ يرتفع داخل الدغل، ويكبُرُ أمام عيني روكك. تهيأ له أن الجذع مرقّط ببقع صفراء رطبة. راح الجذع يعلو ويميس وينحني حتى تجاوز ارتفاع شجرة الصفصاف، ثمّ تعب الجذع قليلاً فانحنى فوق الكسندر سيمونوفيتش، مذكّراً إياه بعمود الكهرباء الموسكوفي. لكنه أثخن بثلاث مرّات منه، وأجمل بكثير، قبل أن يتسنّى له أن يفهم شيئاً أحسّ جسده بارداً جداً. رفع نظره إلى أعلى العمود المخيف، فتوقّف قلبه عند الخفقان لثوان، ولفحه ريحٌ قارس البرودة، مع أنه في يوم من أيام آب، أمام عينيه تشكلت غشاوة، كأنه ينظر إلى الشمس من خلال بنطال صيفي!.. في النهاية العُليا للجذع شاهد الكسندر سيمونوفيتش رأساً مفلطحاً ومدبباً؛ تزيّنه نقاطٌ صفراء دائريّة، فوق خضرةٍ زيتيّة. عينان ضيّقتان مفتوحتان أبداً، دون جفون، لمع فيهما شرٌّ لا سابق له. التفت الرأس التفاتةً قذفت الهواء بشدّة. ثم اختفى الجذع كلّه بين أشجار العلّيق ولم يبقَ إلا العينان تلمعان. وتحدّقان بالكسندر سيمونوفيتش، الذي لفظ ثلاث كلماتٍ، بينما كان جسده كلّه يتصبب عرقاً بارداً، كلمات غير متوقّعة، على الإطلاق، لا شيء خلفها إلا الخوف الشديد:

- ما هذا المزاح!

تذكر بعد ذلك السحرة الهنود.. نعم.. نعم. الهنود الذين يحملُ واحدهم سلّة ولوحة.. ويرقون ويسحرون!

ارتفع الرأس من جديد، وأخذ يخرج هو والبدن من بين شجر العلّيق، تناول الكسندر سيمونوفيتش الفلوت، قرّبه إلى شفتيه، أخذ يتنفس بسرعة ويعزف فالس من أوبرا «يفغيني أونيغين» * .

لمعت العينان وسط الخضرة، مظهرتان كرهاً لا يُطاق لهذه الأوبرا. وسُمع صوت مانيا يتردد سعيداً:

– هل جننت، من يعزف في هذا القيظ؟

والتقطتْ حاشية عين الكسندر سيمونوفيتش من الناحية اليُسرى بقعةً بيضاء.

ثم دوّى زعيقٌ قويٌّ جداً، سُمع في السوفخوز كلّه، وطار في الجهات. قفز الفالس كرجل أعرج، كان الرأس المدبّب الغارق في الخضرة ينقض إلى الأمام، وقد حرّرت عيناه الكسندر سيمونوفيتش، وأطلقتا روحه إلى التوبة. قفز ثعبان يبلغ طوله خمسة عشر أرشيناً * ، ثخين أكثر من رجل سمين مثل نابض من شجر العلّيق، ناثراً غيمة من غبار، فأنهى الفالس وبرق بجانب رئيس السوفخوز متجهاً إلى المكان الذي وقفت فيه البلوزة البيضاء.

رأى روكك لوهلة كيف أصبح لون مانيا أبيض مصفرّاً، وكيف انتصبَ شعرها كالأسلاك نصف أرشين * فوق رأسها، أمام عيني روكك فتح الثعبان فمه للحظة، واندفع منه ما يشبه شوكة الطعام، ثم أمسك بأسنانه مانيا من كتفها مغطّاة بالغبار، رفعها عن الأرض

---

* يفغيني أونيغين: قصيدة دراميّة طويلة للشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين / المترجمان /.

* الأرشين: واحدة قياس روسيّة قديمة للأطوال، تعادل (71) سم /المترجمان/.

مقدار أرشين، فكرّرت مانيا صراخ ما قبل الموت حادّاً جـدّاً. التـفّ الثعبان، فأحدث ذيله عاصفةً، ومضى يضغط ويهـصر جـسد مانيـا التي لم تعد تصدر أيّ صوت. لكن روكك سمع كيف كانت عظامها تتكسّر، ارتفع رأس مانيا عالياً ثم مال بلطف علـى رقبـة الأفعـى، اندفع الدم من فمها، وارتخـت يـدها المكـسورة، وانبثـق الـدم مـن تحت أظافرها نوافير صغيرة. أرخى الثعبان فكيه، فتح فمه ليبتلـع رأس مانيا دفعةً واحدة، ثمّ راحت تدخل في فمه كالإصبع في قفّاز.

أنفاس الثعبان الحارة كانـت تـصفع الأشـياء مـن حولـه، وقـد بلغت وجه روكك، بينما كـاد ذيلـه يكنـسه ويرميـه وسـط الغبـار الكثيف. شـاب روكـك، اسـودّ نـصف وجهـه الأيمـن، فالأيـسر؛ ليصبح مثل حذاء. وفي غثيان المـوت، اسـتطاع أن يغـادر مكانـه، ويبتعد عـن الطريـق دون أن يبـصر أمامـه أحـداً أو شـيئاً. انطلـق يحري.. مالئاً الدنيا صراخاً مخيفاً.

الفصل التاسع

عصيدة حيّة

كان شوكين ممثّل الإدارة السياسيّة الحكوميّة في محطّة دوغينو إنساناً شجاعاً. قال لرفيقه بولايتيس الأشقر مفكّراً:

- ماذا إذاً، هل نذهب؟ أحضِر الدرّاجة الناريّة.

وصمت، ثمّ قال مخاطباً الشخص الجالس على المقعد:

- ضع الفلوت جانباً.

لكن الرجل ذا الشعر الأبيض، المرتجف على المقعد في مبنى الإدارة السياسيّة لمحطة دوغينو، لم يضع الفلوت، بل بكى بصوتٍ عال، حينها أدرك شوكين وبولايتيس أن عليهما أن ينزعا الفلوت من يده. أصابعه كانت متخشّبة على الآلة. أخذ شوكين القوي كأبطال السيرك يرفع كل إصبع من أصابعه على حدة، حتى تمكّن من نزع الفلوت، ووضعه على الطاولة.

كان ذلك صباح يومٍ مشمس تلا يوم مقتل مانيا.

قال شوكين مخاطباً الكسندر سيمونوفيتش:

– ستأتي معنا لتُرينا أين.. وكيف حصل ما حصل.

لكن روكك ابتعد عنه خائفاً وحجب وجهه بيديه وكأنّه يهرب من رؤية مخيفة.

أضاف بولايتيس:

– يجب أن تُرينا المكان.

– لا دعه، هذا الشخص ليس في وعيه الكامل.

طلب الكسندر سيمونوفيتش منهما باكياً:

– أرسلوني إلى موسكو.

– هل أنت مصمّم علي ألا تعود إلى السوفخوز؟

وعوضاً عن الإجابة أخفى روكك وجهه بيديه والفزع يقطرُ من عينيه.

قرّر شوكين:

– لا بأس، أنت فعلاً غير قادر... إنني أرى.. سيسافر المُراسل الآن ويمكنك أن تغادر معه.

وبينما كان ناطور المحطّة يسقي الكسندر سيمونوفيتش ماءً، وهذا الأخير يلعق القطرات الأخيرة من كأس الماء الأزرق، عقد شوكين وبولايتيس اجتماعاً سريعاً. اعتقد بولايتيس أن شيئاً مما ذُكِر لم يحدث، والأمر ببساطة أن الكسندر سيمونوفيتش مريض نفسي، وأن حالة من الهلوسة المُرعبة قد أصابته. بينما مالَ شوكين إلى فكرةٍ مفادها: أن السيرك الجوال المخيّم الآن في مدينة غراتشيفك، ربّما يكون قد فقد ثعباناً ضخماً لا أكثر ولا أقل.

عندما سمع روكك همسهما، وفهم أنهما يشكّان في صحة كلامه، انتصب أمامهما وقد استعادَ شيئاً من وعيه، فرك يديه مثل أحد الرسل في الإنجيل، وقال:

– اسمعاني.. اسمعاني، لماذا لا تثقان بما قلته؟ لقد حصل ما رويته لكما فعلاً! كانت زوجتي موجودة، فأين هي الآن؟!

التزم شكوين الصمت، وأصبح أكثر جدّية. أرسل بسرعة برقيّة ما إلى مدينة غراتشيفك، وألزم العنصر الثالث أن يبقى إلى جوار الكسندر سيمونوفيتش، حتى ينقله ويرافقه إلى موسكو. ثم راح شوكين وبولايتيس يستعدان لرحلة الاستكشاف. لم يكن في حوزتهما إلا مسدّس كهربائي واحد موديل (15) لعام 1927، وهو فخر التقنية الفرنسيّة للقتال القريب، كان يصيب هدفهُ على بعد 100 خطوة، ولا يترك حيّاً في دائرة قطرها مترين، ويَنْدرُ أن يخطئ هدفه.

تقلّد شوكين اللعبة الكهربائية الممتازة، أمّا بولايتيس فقد تقلّد رشاشاً عادياً ذا خمس وعشرين طلقة، وحمل عدّة مخازن ذخيرة، ثمّ ركبا الدراجة النارية وانطلقا في صباح ندي نحو السوفخوز، قطعت الدراجة المسافة الفاصلة بين المحطة والسوفخوز وهي تقدّر بعشرين فرسخاً. خلال ربع ساعة (وكان روكك قد أمضى ليلة كاملة حتى قطعها، ذلك أنّه كان يختبئ بين الأعشاب المحاذية للطريق، أثناء نوبات الخوف المميتة التي أصابته).

حينها بدأت الشمس تلقي بدفئها على الرابية التي يجري أسفلها نهر توب، ثم ظهر القصر السُكّري ذو الأعمدة بين خضرة

الأشجار. هدوء قاتلٌ كان يخيّم حول المكان. تجاوز الرجلان فلاحاً يسبح فوق طوفٍ حمّله بضعة أكياس، سرعان ما أصبح خلفهما. قطعت الدرّاجة الجسر، وشرع بولايتيس ينادي في بوق، لعل أحداً ما يجيب، لكن دون جدوى، باستثناء نباح كلابٍ متفرّق قادمٍ من كونتسوفك. خففت الدراجة من سرعتها، وهي تقتربُ من البوّابة المزيّنة بتماثيل أسودٍ تميل ألوانها إلى الخُضرة.

ترجّل الرجلان عن الدراجة وقد كساهما الغبار، ربطاها بسلسلةٍ معدنية إلى البوابة الحديديّة، وأقفلاها بقفلٍ خاص. دخلا فناء القصر. أدهشهما السكون المخيّم هناك. نادى شوكين بصوتٍ عالٍ:

- هل من أحدٍ هنا.

لكنّه لم يتلقَ جواباً. جال الرجلان حول فناء القصر، فازدادت دهشتهما. تجهّم بولايتيس، ومضى شوكين يتفحّص الوضع بجديّة أكبر، فراح حاجباه الأشقران يقتربان من بعضهما أكثر فأكثر. نظرا من خلال نافذة المطبخ المقفلة إلى الداخل، فلاحظا أن لا أحد هناك، إلا أن أرض المطبخ مفروشة بقطع الصحون البيضاء المكسّرة. همس بولايتيس:

- تعلم، لابد أن شيئاً ما حصل لهم بالفعل، إنها كارثة.

صرخ شوكين:

- هيه، مَنْ هناك؟ هيه!

لم يجبه إلا صدى صوته العائد من أقبية المطبخ. فتابع يتمتم:

– الشيطان وحده يعرف ما الذي حدث. لا يستطيع الثعبان ابتلاعهم جميعاً. دعنا ندخل البيت.

كان باب القصر من ناحية شرفة الأعمدة مشرّعاً، وفي الداخل بدا خالياً تماماً، صعد الرجلان إلى الطابق الأوّل، طرقا الأبواب، وفتحاها جميعاً، دون نتيجة، ثم خرجا من الباب الخلفي إلى الفناء من جديد.

أمر شوكين:

– دعنا نلتفُّ حول البناء، إلى الحديقة الزجاجيّة، فنفتّش كل شيء، ونتصل من هناك هاتفياً.

مشى الرجلان فوق طريق مرصوف بالقرميد، قريباً من الحديقة إلى الفناء الخلفي، دخلاه، ولفهما لمعان زجاج الحديقة الزجاجيّة.

همس شوكين وقد لاحظ شيئاً ما:

– تمهّل قليلاً.

وتناول مسدّسه عن خصره.

أمسك بولايتيس رشاشه بحذر، وانبعثَ صوتٌ مخيف وغريب جداً من الحديقة الزجاجيّة، ومن مكان ما خلفها، لكأن قطاراً ينطلق: زاو - زاو.. زاو - زاو... س - س - س - س...

همس شوكين مخاطباً زميله:

– كن حذراً. وتقدّم المحققان إلى الأمام مُحاولَين ألا يُصدر نعلاهما أي صوت. عبر زجاج الحديقة نظرا إلى الداخل. تراجع بولايتيس إلى الخلف مباشرةً وقد شَحُبَ لونه. فتح شوكين فمه، وتجمّد مكانه، والمسدس بيده.

كانت الحديقة الزجاجيّة تعجّ بالحياة.. كان منظر أرض الحديقة كعصيدة من الديدان! ، خليطٌ هائل من مخلوقاتٍ تَنْغِلُ، يزحف بعضها فوق بعض، تتكاثر في شلل وتقتل تتمايل وتصدرُ فحيحاً قبيحاً. ثعابين ضخمة تزحف هنا وهناك، قشر بيض يتكسّر تحت أجسادها. مصباحٌ كرويٌّ يعمل بكامل طاقته ويصدر ضوءاً شاحباً. ثلاث حجرات تشبه صناديق ضخمة معتمة كصناديق التصوير كانت متباعدةً بين تلك الكائنات. اثنتان منها مقلوبتان ومطفأتان، أما الثالثة فما زال شعاعٌ أحمر قاتم ينبعث منها، ثعابين بكل الحجوم تتسلّق الأسلاك، وتصعد الإطارات المثبّتة، ثم تخرج من خلال الثقوب إلى السقف، ومن المصباح الكروي الكبير تدلّى ثعبانٌ مرقطٌ طوله بضعة أرشينات، وراح يهزّ رأسه كرقّاص ساعة، خشاشٌ غريب، يصدرُ فحيحاً كريهاً، ورائحة عفونة مقيتة تتصاعد من الحديقة الزجاجيّة.

ميّز الرجلان المُسمّران بين ذلك الخليط كميّة من البيض في الزوايا تغطيها طبقة من التراب والغبار، وطيراً ضخماً غريباً، طويل الساقين، يستلقي دون حراكٍ، عند إحدى الحُجرات. وجثة إنسان في ثياب رصاصيّة اللون، ملقاةً عند الباب، وإلى جوارها بندقيّة.

صاح شوكين:

- إلى الخلف.

وأخذ يتراجع، دافعاً بولايتيس بيده اليُسرى، ورافعاً مسدّسه باليُمنى. تمكّن من الإطلاق تسع مرات، أصدرت أزيزاً وبرقاً

أخضر ضرب الأرض قرب الحديقة الزجاجيّة، ارتفعت أصوات الكائنات بصورةٍ غريبة، وردّا على طلقات مسدّس شوكين الكهربائي، ازدادت الحركة عنفاً في الحديقة الزجاجيّة، وبدأت الرؤوس المفلطحة تُطلُّ من كل الفتحات الصغيرة. قصفٌ كالرعد انتشر في أرجاء السوفخوز كلّها، ولمعانٌ غريبٌ بدأ يتراءى على الجدران.

فتح بولايتيس النار بكثافة وتراجع إلى الخلف.

خشخشة كائن بأربعة مخالب تعالت وراء ظهره،ثم صرخ بشكل مريعٍ وسقط على قفاه. كائن بأربعة مخالب مقلوبة، بنيٌ مائلٌ للخضرة، ضخم الرأس، مدبب الفكين، بذيل مسنّن، يشبه عظاءةً عملاقة. انقض من خلف زاوية الحظيرة على بولايتيس، عضّه في رجله وأسقطه أرضاً.

صاح بولايتيس:

- ساعدني.

وفي اللحظة نفسها أصبحت يده اليُسْرى في فم الكائن، وسمع بأذنيه تحطّم عظامها. حاول جاهداً أن يلتقط الرشاش بيده اليُمنى، دون جدوى. استدار شوكين وشاهد المنظر، أطلق مسدّسه الكهربائي قريباً من الكائن خشية أن يصيب رفيقه، لعلّه يخيفه، ثم عاد وسدد صوب ثعبان ضخم، زيتي اللون، عبر الحديقة الزجاجيّة وانقض نحوه فقتّله، والتفت من جديد نحو بولايتيس نصف الميّت بين فكي تمساح! دار حول الوحش بسرعة باحثاً عن مكان يصوّب نحوه دون أن يقتل صاحبه، ثم أطلق أخيراً فأردى

الزاحف المخيف، وأطلق عليه ثانيةً فقتله تماماً بعد أن أنارَ المكان ببرق أخضر اللون، تمدّد الزاحف دون حراك وترك بولايتيس يسقطَ من بين فكّيه، كان الدم يسيل من يده وفمه، بصعوبةٍ بالغة سحب رجله المكسورة، ذبلت عيناه، تشنّج، وتمتم:

– شوكين..! اهربْ.

أطلق شوكين صوب الحديقة الزجاجيّة مرّاتٍ عدّة، فتساقطت ألواحٌ زجاجيّة، لكن نابضاً عملاقاً قويّاً، ذا لون أخضر كالزيتون اندفع من خلف شوكين عابراً نافذة القبو، زحف عبر الفناء، فاحتلّه بجسده، لف ساقي شوكين خلال لحظة ورماه على الأرض، فطار المسدّس اللّماع، صرخَ الرجل الشجاع بأعلى صوته، ثم اختنق، اختفى جسده بين دوائر جسد الثعبان تماماً، لم يبقَ ظاهراً لوهلة إلا رأسه، لكنّ الدوائر لفّت الرأس فسلخت فروته، وحطّمت عظامه. بعد ذلك لم تُسمع أية طلقة في السوفخوز، أطفأ كل شيء فحيحٌ غريب. من بعيد حملت الريح عواءً من قرية كونتسوفك، لكن أحداً لم يكن يستطيع أن يميّز الآن هل هو عواء ذئاب أم بشر!

الفصل العاشر

الكارثة

كانت المصابيحُ تضيء بشدّة في غرفة هيئة التحرير الليليّة لصحيفة «إزفستيا» ثم جلس المحرّر التقني السمين، على الكرسي المحوري، يصفُّ حروف العمود الثاني المخصص للبرقيات «داخل اتحاد الجمهوريات»، تفحّص مسودّة وقعت تحت نظره، من خلال زجاج نظّارته، وراح يضحك. دعا المعنيين بالتدقيق وترتيب المواد في القسم، ووضع أمامهم مسودّة مطبوعة في عمودٍ ضيّق، على ورقةٍ رطبة:

«مدينة غراتشيفك. مقاطعة سمولينسك. ظهرت في القضاء دجاجة بحجم الفرس، كانت تعدو كالحصان، ولها في مكان الذيل ريشٌ نسائي برجوازي».

ضحك الجميع بشكلٍ عنيف. قال المحرّر التقني وهو يواصل الضحك:

– في زمني، عندما كنت أعمل عند فانيا سيتين في صحيفة «الكلمة الروسيّة» وصل بنا الأمر إلى الفيلة! أما اليوم فإلى النعامة.

ضحك المصفّفون، ثم قال المرتّب:

– هذا صحيح، إنها نعامة. هل نبقي الزاوية إيفان فونيفاتيفيتش؟

أجابه المحرّر:

– هل جُننت، إنني أستغرب كيف سمح لها السكرتير بالمرور، إنها بكل بساطة برقيّة أرسلت في حالة سُكر؟!

وافقه مُصففو الحروف، فسحب المُرتّب البروفة المتعلّقة بالنعامة عن الطاولة وهو يقول:

– هذا صحيح، أرسلوها وهم يحتفلون بمناسبة ما.

وهكذا صدرت صحيفة «الإزفستيا» في اليوم التالي، تحمل كالعادة عدداً كبيراً من المواد المثيرة، لكن دون أيّة إشارة لنعامة مدينة غراتشيفك. قلّب الدكتور إيفانوف ـ وهو أحد مدمني قراءة «الإزفسيتا» ـ صفحات الجريدة بعناية في مكتبه، تثاءب وتمتم:

– ما من شيءٍ يثير الاهتمام.

ارتدى روب التجارب الأبيض، أُضيئت المصابيح في مكتبه بعد فترة من الزمن، وأخذت الضفادع تنق. أما في مكتب البروفيسور بيرسيكوف فقد جرى حديث حامٍ. وقف بانكرات المرعوب واضعاً يده على صدره وقال:

– فهمت.. سمعاً وطاعة.

قدّم له بيرسيكوف مُغلّفاً مختوماً بالشمع الأحمر وقال:

– اذهب مباشرةً إلى قسم تربية الحيوان، إلى ذلك الرئيس الأبله بتاخ، وقل له وأنت تحدّق في وجهه مباشرةً: «أنت خنزير»، هكذا يقول البروفيسور بيرسيكوف، ثم أعطه المغلّف.

فكّر بانكرات شاحباً: «يا لها من مهمّة!» وخرج حاملاً المغلّف.

ضاق البروفيسور ذرعاً بما يعانيه، تمتم وهو يذرع غرفة المكتب ويفرك يديه داخل القفازات:

– يعلمُ الشيطان وحده ما الذي يجري، إنهم يسخرون منّي بصورة غير مسبوقة، منّي ومن علم الحيوان أيضاً. يحضرون لذلك السافل بيض الدجاج اللعين على راحات أكفّهم!! وها قد مرّ شهران كاملان ولم يحضرا لي طلبي! أمريكا بعيدة إذاً!! سخافة أبديّة! فظاعة مزمنة! ـ ومضى يعدّ على أصابعه ـ لننقل عشرة أيام على الأكثر، حسناً فليكن خمسة عشر يوماً، ولنبالغ ونقول: عشرون يوماً، يومان في الطائرة، يوم من لندن إلى برلين.. وست ساعات من برلين إلى هنا.. ما أفظع ما يحدث!

واندفع نحو الهاتف متحمّساً، وأخذ يتّصل بمكانٍ ما.

كان قد أعدّ العُدَّة في مكتبه لأخطر التجارب الغامضة: رزم من الورق أُعدِّت لأجل إحكام إقفال الأبواب والنوافذ ومنع التسرّب، كمّامات خاصة، خراطيم موصولة بها، عدد من البالونات اللّماعة، تحمل ملصقات تحذيريّة: «ممنوع اللمس، مواد كماوية»، ورسماً يمثل جمجمةً بشريّة وعظمتين متصالبتين.

استغرقَ البروفيسور ثلاث ساعاتٍ كاملة، حتى شعر بالهدوء وبدأ ينفّذ بعض الأعمال البسيطة، عمل في المعهد حتى الحادية عشرة ليلاً، ولهذا السبب ما كان له أن يعرف ماذا جرى خلف الجدران السُكريّة. ولم يسمع بالخبر الذي شاع في موسكو كلها، عن ثعابين غريبة، ولا سمع بفحوى البرقيّة التي وصلت إلى الصحيفة المسائية. كل تلك الأخبار ظلّت بعيدة عن مسامع البروفيسور، ولا سيّما أن مساعده إيفانوف الذي اعتاد أن ينقل له أخبار العالم الخارجي، يشاهد مسرحيّة «فيودر إيوانوفيتش».

عاد بيرسيكوف حوالي منتصف الليل، إلى شقّته في شارع بريتشيستنك، وذهب فوراً إلى النوم، قرأ قبل أن يغفو مقالةً باللغة الإنكليزية في مجلة «أخبار علم الحيوان» التي تُرسل إليه من لندن. نام، ونامت موسكو كلها، التي لا تغفو قبل منتصف الليل. ظل فقط المبنى الرصاصيّ الضخم في شارع تفيرسكي مستيقظاً؛ وفي فناء المكان، حيث الهديرُ المخيف الصادر عن آلات طباعة «الإزفسيتا» دارَ في مكتب المحرّر الفنّي هرجٌ ومرج غير معهودين. كان المحرّر هائجاً تماماً، وعيناه محمرّتان، ذرع المكتب مرّات عديدة، دون أن يدري ماذا عليه أن يفعل، أرسل الجميع إلى الشيطان! قال مخرج الجريدة وهو يمشي خلفه، ورائحة الخمر تفوحُ من فمه:

– لا بأس إيفان فونيفاتيفيتش، ليست هذه مصيبة، فليصدروا غداً ملحقاً طارئاً. لا يمكن سحب العدد من آلات الطباعة الآن.

عمّال صف الحروف لم يغادروا المكان. ساروا زُمراً زُمراً يقرؤون البرقيّات التي استمرّت في الوصول طوال الليل، واحدة تلو الأخرى، كل ربع ساعة! وكانت تصبح أكثر غرابة مع الوقت، لُمِحَت قبّعة ألفريد برونسكي المدبدبة في الضوء الوردي الوهّاج الذي ينير المطبعة، وكان الميكانيكي السمين، يتخمّع هنا وهناك ويُصرُّ على أسنانه، يظهر تارةً ويختفي أخرى. باب المدخل طُرِقَ طوال الليل. فقد تواصل قدوم مُعدِّي الريبورتاجات، خطوط المطبعة الهاتفيّة الخمسة عشر ظلّت مشغولة باستمرار، وكان المقسم يردُّ على الدوام «الخط مشغول».. «الخط مشغول» وتصدح الأنغام الجاهزة في آذان الشبّان الذين فارقهم النوم.

تجمّع عمّال صف الحروف حول الميكانيكي السمين؛ الكابتن البحّار.. فخطب فيهم قائلاً:

– ينبغي إرسال طائرات محمّلة بالغاز إلى تلك المنطقة.

أجاب أحد العمّال:

– هذا هو الحل الوحيد، لأن ما يحصل يستوجب ذلك.

انطلقت شتيمةٌ قذرة، وصرخ صوتٌ مقرف:

– يجب إطلاق الرصاص على بيرسيكوف هذا.

أجاب صوت آخر:

– ما ذنب بيرسيكوف؟! إن كان لابدّ من إعدام أحد فيجب إعدام ابن الزانية في السوفخوز.

وأردف ثالث:

– كان على الجهات المختصّة أن تشدّد الحراسة.

– ربّما لا علاقة للبيض بكل ما يحدث!

كان المبنى كله يهتز ويهدر بسبب عجلات آلات الطباعة، وبدا كأن حريقاً كهربائياً سيلتهم هذا البناء الرصاصي اللون، غير اللافت للانتباه! لم يؤثر يوم العمل المتواصل على طاقة المبنى، حتى مع تضاعف الأشياء المطلوبة، السيارات والدراجات النارية دخلت وخرجت باستمرار الواحدة تلوى الأخرى، إلى الفناء الإسفلتي. استيقظت موسكو وقد تلبّستها أوراق الإعلانات والصحف كطيور بيضاء. كانت الأوراق تخشخش وتهسهس في أيدي الجميع. عند الساعة الحادية عشرة صباحاً نفدت جميعُها. لم يبقَ في حوزة بائعي الصحف شيئاً، مع أن «الإزفسيتا» أصبحت تطبع مليوناً وخمسمئة نسخة يوميّاً في هذا الشهر بالتحديد.

خرج البروفيسور بيرسيكوف من شارع بريتشستينك مُستقلاً الباص باتجاه المعهد. هناك كانت تنتظره مفاجأة؛ في بهو المعهد توضّعتْ ثلاثة صناديق خشبية لُفَّت بشكل أنيق بأحزمة وشرائط معدنية، وحمل كلٌ منها مُلصقاً، كُتِبَ عليه كلامٌ باللغة الألمانية، تعلوه عبارة بالروسيّة: «احذروا بيض».

غمرت البروفيسور السعادة حال رؤيته الصناديق، فصاح ينادي بانكرات:

– وأخيراً بانكرات! افتح الصناديق بسرعة! كن حذراً كي لا تكسر البيض، ثم انقلها إلى مكتبي.

نفّذ بانكرات الأمر بسرعة. فإذا بالصناديق في مكتب البروفيسور خلال ربع ساعة. كانت محشوّة بنشارة الخشب، وقصاصات ورقية. صاح البروفيسور وهزّ قبضته، بعد أن تفحّص البيض:

- هل يسخرون منّي! إنه حيوان هذا الـ (بتاخا). لا أسمح لهم أن يهزؤوا بي! ما هذا، بانكرات؟!

أجاب بانكرات بحزن:

- بيض!

- بيض دجاج يا بانكرات. هل تعلم: بيض دجاج؟! فليأخذهم الشيطان. ما حاجتي بهذا البيض؟ فليرسلوه إلى ذلك الحقير في السوفخوز!

واندفع بيرسيكوف إلى الهاتف، رفع السماعة، لكن صوت مساعده دوّى في الكاريدور قبل أن يتصل:

- فلاديمير إيباتيتش! فلاديمير إيباتيتش!

ابتعد بيرسيكوف عن الهاتف، وأخلى بانكرات الطريق لإيفانوف، الذي دخل راكضاً إلى المكتب، لم ينزع قبّعته الرصاصيّة عن رأسه كعادته، ألقى بنفسه على الكرسي، لوّح بورقة جريدة في يده وصاح:

- أتعلم ما الذي حدث، فلاديمير إيباتيتش؟

وتابع تلويحه بورقة الجريدة التي تحمل عنواناً عريضاً: «الملحق الطارئ» وصورة تتوسطها بألوان زاهية.

لكن بيرسيكوف أجابه هو الآخر صائحاً دون أن يكون قد سمع شيئاً من كلامه:

– لا. اسمع ماذا فعلوا بي أنا، فكّروا أن «يجلطوني» ببيض الدجاج. بتاخا هذا ليس إلا أبلهاً حقيقياً.. انظر!

شُدِهَ إيفانوف تماماً، وهو ينظر برعب إلى الصناديق المفتوحة، ثمّ إلى ورقة الجريدة.. كادت عيناه تخرجان من محجريهما. تمتم مختنقاً:

– آها.. أعرف الآن ما الذي حدث.. أعرفُ. فلاديمير إيباتيتش، انظر أرجوك.

وقلب له الصفحة واضعاً إصبعه المُرتجف على الصورة الملوّنة، حيث يلتفُ ثعبانٌ ضخم زيتي اللون، تعلوه بقع صفراء، كان يبدو كخرطوم إطفاء مخيف وسط خضرةٍ غريبة. لابدّ أن صورته التقطت من أعلى بواسطة طائرةٍ اقتربت بحذر منه. تابع إيفانوف:

– ما هذا برأيك فلاديمير إيباتيتش؟

رفع بيرسيكوف نظارته إلى أعلى، ثمّ وضعها على عينيه متفحّصاً الصورة، وقال بدهشة كبيرة:

– يا للشيطان! هذا.. نعم أنيكوند، ثعبان مائي...

رمى إيفانوف قبّعته جانباً، جلس من جديد على الكرسي، وراح يتكلّم ويضرب الطاولة أمامه مع كل كلمة:

– فلاديمير إيباتيتش هذا الأنيكوند في مقاطعة سمولينسك، شيء لا يصدّق، رهيب! أتعلم أن ذلك الحقير فرّخ ثعابين بدل الدجاج، ثعابين تعرّضت تحت الشعاع للشذوذ الذي اختبرناه على الضفادع!

قال بيرسيكوف، وبدأ وجهه يصبح عاصفاً:

– ما هذا؟ هل تمزح بيوترستيبانوفيتش؟ لكن من أين جاء؟

أرتج على إيفانوف للحظة، ثم انطلق لسانه، وضع إصبعه في الصندوق المفتوح، حيث كانت رؤوس البيوض تُطلّ من الشارة الصفراء، وقال:

– من هنا

قال بيرسيكوف وقد بدأ يستوعب الأمر:

– ماذا؟!

أجاب إيفانوف صارخاً بثقةٍ تامة، وملوّحاً بقبضته:

– كن على ثقة من أنهم أرسلوا بيوض النعام والثعابين وغيرها مما طلبت إلى السوفخوز، أما بيض الدجاج فأرسلوه إليك عن طريق الخطأ.

اخضرّ وجه بيرسيكوف وارتمى على الكرسي الدوّار وهو يردّد:

– يا إلهي... يا إلهي..

تسمّر بانكرات عند الباب ولفّه صمتٌ وشحوب شديدين، بدا كمن أصابته لوثة. قفز إيفانوف، التقط الورقة من جديد وأشار بظفره الحاد إلى سطر ما، وقال بصوتٍ مرتفع في أذن البروفيسور:

– سيواجهون الآنَ قصّة سارة ولا شك!.. ما الذي سيحدث؟ لا يمكنني أن أتصوّر. انظر فلاديمير إيباتيتش.

وقرأ بصوتٍ عالٍ من أوّل سطرٍ وقع عليه بصرُه: «تزحف الأفاعي قطعاناً باتجاه مدينة موجايسك، واضعةً بيوضاً لا حصر لها في كل مكان، لوحظ بعضها في قضاء موخوفسك، وقد ظهرت تماسيحٌ ونعاماتٌ عملاقة أيضاً. تمكّنت فصائل الوحدات الخاصة،

وفرق الداخليّة، من وقف حالة الفزع والخوف من مدينـة فيـازم، بعد أن أضرمت النار في الغابة المجاورة للمدينـة، فأوقفت بـذلك زحف تلك الكائنات...».

نهـض بيرسيكوف عـن كرسيه، تبـدّل لونـه بـين الـشحوب والزُرقة! وأخذت عيناه تلتمعان، ثمّ بدأ يصرخ بأنفاس متقطّعة:

– أنيكوند.. أنيكوند.. ثعبان مائي! يا إلهي ـ ما شاهد أحـد البروفيسور في هذه الحالة من قبل، لا بانكرات ولا إيفانوف. فكّ ربطة عنقه بحركة واحدة، وقطع بعض أزرار قميصه بعصبيّة، تضرّج بلون مخيف، تمايل، وبدت عيناه زجاجيّتين تماماً، خرج من المكتب. دوّى صراخ شديد في أقبية المعهد الحجريّة، وارتدّ الصدى:

– أنيكوند... أنيكوند* ...

صرخ إيفانوف في وجه بانكرات، وهو يتراقص في موضعه من الفزع:

– أمسك بالبروفيسور، اسقهِ ماءً.. إنها صدمة عصبية!

---

* نوع من الثعابين الاستوائيّة العملاقة، تعيش في المستنقعات والبحيرات، تقتل فرائِسها بالعصر والخنق ثم تبتلعها، تستطيع أن تقتل نمراً أو جاموساً /المترجمان/.

الفصل الحادي عشر

المعركة والموت

أ

توهّج ليل موسكو بشدّة. أضيئت الأنوار كلّها، ما من ركن في شقق المدينة إلا وأنير فيه مصباح، ورُفعت الأبجورات عن كل النوافذ. لم ينم من سكان موسكو الذين يقدّرون بأربعة ملايين إلا الأطفال الصغار الذين لا يدركون ما يجري. أكل الناس وشربوا في شققهم كيفما اتفق، وتعالت أصوات غريبة غير مفهومة. وجوه البشر مكفهرة، تطلّ من نوافذ الطوابق، تحدّق في السماء التي تخترقها الأضواء الكشافة. من السماء كانت أضواء الطائرات الكاشفة تنصبُّ باتجاه الأرض على شكل مخاريط شاحبة، تظهر وتختفي بين الحين والآخر، وكان هدير الطائرات فوق موسكو مستمراً، يتعالى ويصبح مخيفاً باتجاه تفيرسك - يامسك. أما القطارات فقد واصلت قدومها بمعدّل قطار كل عشر دقائق، تخترق محطّة الكسندروفسكي، محمّلة بما هبَّ ودبَّ، وجارّة خلفها

عربات ذات أشكال مختلفة، بعضها عربات بضائع وبعضها خزّانات وقود، والناس يتعلّقون ويتشبثون بأي شيءٍ نافرٍ من جوانب العربات، وقد فقدوا صوابهم. بشرٌ كالنمال يركضون على طريق تفيرسك - يامسك، بشرٌ اعتلوا أسطحة الباصات والتراموايات، تدافعوا بشدة، وسقط بعضهم تحت العجلات. أطلقت الدوريات العسكرية أعيرة ناريّة كثيفة فوق الناس لوقف حالة الفوضى والفزع التي انتابتهم وهم يتدافعون خارجين من القطارات القادمة من مقاطعة سمولينسك إلى موسكو. تطاير زجاج محطّات القطارات، وزعت أبواقُها. الشوارع ملأى باللافتات التي تدوسها الأقدام بعد أن سقطت عن الجدران، لافتات لا يهتم بها أحد، تلتمع تحت الأضواء الحمراء الساطعة وتعلن حالة الطوارئ في موسكو، مع عبارات التهديد والوعيد لمن يخلق الفوضى، وبعضها يحاول أن يطمئن الناس معلناً أن فرقاً من الجيش الأحمر وصلت مسلّحة بأسلحةٍ غازيّة: كل تلك اللافتات لم تستطع أن تهدئ من الغليان في ليل موسكو. الصحون وأصص نباتات الزينة تطايرت وتكسّرت في الشقق. الجميع يسارعون إلى حزم أمتعتهم وحقائبهم على أمل الوصول إلى ساحتي كالانشيفسك وياروسلافسك، أو إلى محطة قطارات نيقولايفسك، لكن هيهات، فمحطات قطارات المناطق الشمالية والشرقية مطوّقة بأرتال من المشاة، وسيارات الشحن الكبيرة المحمّلة بالصناديق والجنود الذين يعتمرون خوذاً ذات نهايات مدبّبة والشرر يتطاير من عيونهم، بينما حرابهم مصوّبة في كل اتجاه. كانوا ينقلون

الاحتياطي من القطع والسبائك الذهبية من أقبية اللجنة المالية الشعبية إلى مكان ما، وكذلك صناديق ضخمة كتب عليها: «احذروا متحف تريتاكوفسكي للوحات الفنية». سيارات تهدر وتخور في أرجاء موسكو كلها، وانعكاسات حريق هائل كانت تلتمع بعيداً في السماء، دويٌّ قصفٍ مدفعي مستمر اخترق ظلمة آب الدامسة.

مع الفجر من أعلى شارع تفيرسكوي، في مدينة موسكو التي لم تنم على الإطلاق، ولمْ تطفئ أي مصباحٍ من مصابيحها، قدمتْ أرتالٌ تعدُّ بالآلاف من فرقة الفرسان العسكريّة، تكنس أمامها كل ما يواجهها، في مداخل البنايات، وواجهات المحلات التجارية، تدوس الزجاج المحطّم في الشوارع. شراشيب قلنسوات الفرسان الحمراء ناست على وقع خطوات الجياد فوق ظهورهم الرصاصيّة، وثقبت أسنّة رماحهم السماء. لوهلةٍ بدا كأن الحياة قد عادت إلى جموع الناس ذوي المزاج العصبي، وطمحوا لفعل شيء، وهم يشاهدون أنساق الجنود تتقدّم فتفرّق الجموع وتدفع بهم إلى الأرصفة. بدأت أصوات الجمهور تتعالى، وصاحت نسوة متحمّسات:

– تعيش فرقة الفرسان العسكريّة!

فأجاب الرجال:

– تعيش!.. تعيش!

صاحت أصوات أخرى:

– سيسحقونكم.. يسحقونكم!

وارتفعت بضعة أصوات:

- ساعدونا

تطايرت من الرصيف إلى داخل صفوف الفرسان علب سجائر ونقود فضيّة وساعات. تسلّق عددٌ من النسوة السياج مغامراتٍ بعظامهنّ، وهنّ يندفعن بين صفوف الجياد، ويتشبّثن بالسروج بغية تقبيل الفرسان بين الحين والاخر وبصورةٍ نادرة تردد صوت الفصائل عبر قرع سنابك الخيول المنتظم:

- رسنٌ أقصر!

كان الفرسان يغنون بسرور في بعض الأمكنة، وينظرون من تحت قلنسواتهم الحمراء المائلة إلى ما تضيئه أنوار الاعلانات التجارية على جانبي الطريق. كانت تقطع صفوف الفرسان أشكالٌ غريبة على الخيول أيضاً، تحملُ على ظهورها أنابيب وأسطواناتٍ معلّقة بأحزمة، وزحفت وراءَها صهاريج مزوّدة بخراطيم وأذرع طويلة جداً؛ كانوا كأنهم يمضون لإطفاء الحرائق. كما قطعت صفوف الفرسان أيضاً سيّارات مصفّحةٌ بإحكام بصفائح رماديّة مضادة للرصاص، تحمل الأنابيب نفسها، تهتز فوقها، تظهر على جانبي كل آلية عبارة تقول: «غاز كيميائي» وصورة جماجم بشرية. تعالت أصوات الناس على الرصيف:

- ساعدونا أيّها الأبطال، اضربوا الزواحف القذرة.. أنقذوا موسكو.

ورددت أصوات أخرى:

- موسكو الأم. موسكو الأم!

وقُذِفَتْ في الهواء الليلي المُضاء علب السجائر نحو الفرسان الذين ظهرت أسنانهم البيضاء وبدؤوا يغنون أغنيةً جاءت من بعيد، تهز المشاعر:

«... لا قص، لا بنت، لا شب
سنسحق الزواحف دون شك!
أربعةٌ من الطرف ـ وسيموت أعداؤكم!»

وتعالت صيحات «أورا*»، واستمرت مع انتشار خبر مفاده أن قائد فرق الفرسان الأسطوري السابق الذي تقاعد قبل عشر سنوات يتقدّم الفرقة اليوم، وتعلو رأسه الأشيب قلنسوةٌ حمراء على جوادٍ من جياد الفرقة نفسها. كل ذلك هدأ من روع الجماهير الخائفة وبعث في نفوسها الأمل.

كانت الإنارة في المعهد خفيفة جداً. ولم تكن تصله أخبار الأحداث إلا بشكل جزئي غير واضح. دوّى صوت إطلاق رصاص تحت الساعة الضوئية بالقرب من ساحة السيرك، لقد أعدموا بعض الأشخاص الذين حاولوا سرقة شقّة في شارع فولخونك. كانت حركة السيارات في الشارع أمام المعهد ضعيفة، فمعظم الآليات اتجهت نحو محطّات القطارات، مصباحٌ واحدٌ فقط أضاء

---

* صيحة حماسية يطلقها الروس في المسيرات والتجمّعات الجماهيرية، كتحية لشعار، أو هتاف لقائد، ويطلقها الجنود عندما يندفعون من خنادقهم للقاء العدو وما شابه... /المترجمان/.

مكتب البروفيسور بصورةٍ رديئة، كان يلقي حزمة ضوئية على طاولته، وهو يجلس صامتاً واضعاً رأسه بين يديه، وطبقاتٌ من دخان التبغ تحيط به. الشعاع الأحمر في الحجرة الصغيرة مطفأ. والضفادع صامتةٌ في أقفاصها، إنها نائمة. البروفيسور لا يعمل، لا يقرأ. تحت مرفقه الأيسر اضطجع الإصدار المسائي للصحيفة، وفيه تحتل البرقيّات عموداً ضيّقاً، بعض أخباره تقول إن مدينة سمولينسك تحترق كلها، والمدفعية تقصف غابات ماجايسك، مربّعات، مُربّعات، محطّمةً تجمّعات بيض التماسيح، المتوضعة في الوديان الرطبة. وكُتِبَ أيضاً أن أسراب الطائرات عملت بنجاح في محيط مدينة فيازم، ناثرة الغاز في القضاء كله تقريباً، لكن الضحايا البشرية في تلك الأماكن كانت لا تُحصى، لأن السكان المحليين بدل أن ينزحوا من مناطقهم وفق عمليات ترحيل منظّمة وصحيحة، انطلقوا بسبب حالة الهلع والخوف مجموعاتٍ صغيرة، وتفرّقوا حيث قادتهم أقدامهم. وثمّة خبر آخر في ذلك العمود يقول إن فرقة الفرسان القوقازيّة أبلت بلاءً حسناً، وربحت المعركة في منطقة ماجايسك ضد قطعان النعام العملاقة، وكانت خسائرها البشرية قليلة. ومن بين الأخبار أيضاً إعلان الحكومة أنها ستضطر إلى ترحيل سكان موسكو كلها، إذا لم تستطع وقف زحف الزواحف حتى مسافة مئتي فيرست من موسكو، عندها يجب على العمّال والموظّفين جميعاً أن يلتزموا الهدوء، لأن الحكومة ستتخذ إجراءات حازمة جداً وشديدة لمنع تكرار ما حدث في سمولينسك، عندما قذف المواطنون أفران المطابخ والمواقد

الحامية خارج منازلهم، فانتهى الأمر إلى كارثة شاملة. وكُتِبَ أيضاً أن احتياطي موسكو من المواد الغذائية يكفي لستة أشهر على الأقل، وأن القيادة العامة ستتخذ إجراءات عاجلة لتصفيح الشقق من أجل مكافحة الزواحف في شوارع المدينة نفسها، في حال عدم تمكّن الجيش الأحمر والطائرات، وفرق الفرسان من وقف زحفها.

لم يقرأ البروفيسور حرفاً من كل ما سبق، بل كان يدخّن، وينظر أمامه بعيون زجاجيّة. لم يكن في المعهد كلّه إلا شخصان آخران: بانكرات وماريّا ستيبانوفا المتخصّصة بالاقتصاد، التي كانت تذرف الدموع وقد أمضت حتى الآن ثلاثة أيام كاملة في مكتب البروفيسور، دون أن تستطيع النوم، لأن البروفيسور رفض أن يفارق حجرة الاختبار الأخيرة المتبقّية لديه، ذات الشعاع الخامد منذ أيام. ماريّا ستيبانوفا تجلس الآن على سرير قماشي في زاوية معتمة من زوايا المكتب، تحدّق في إبريق الشاي المخصص للبروفيسور وهو يغلي فوق موقدٍ غازي. الهدوء يعم المعهد كلّه، ثم حدث كل شيء فجأةً:

سُمِعَتْ أصواتٌ غاضبة من الرصيف المقابل، دفعت ماريّا ستيبانوفنا للقفز من مكانها، أضواء المصابيح كانت تنيرُ الشارع وتعالى صوت بانكرات في البهو. لم يستوعب البروفيسور ذلك الضجيج جيداً، رفع رأسه للحظة، وتمتم قائلاً: «آه ما أشد غضبهم.. ماذا بإمكاني الآن أن أفعل؟» وعاد إلى الصمت، الصمت الذي اخترقته الأصوات. أخذت أبواب المعهد المطلّة على شارع غيرتسن تطرق بقوّة واهتزّت الجدران. تكسّرت المرايا في المكتب

المجاور لمكتب البروفيسور. صرّ وانهار الزجاج في مكتب البروفيسور نفسه، طارت قطعة بلاط رصاصيّة من النافذة وحطّمت الطاولة الزجاجية، فصعقت الضفادع في الأقفاص وشرعت تنقّ. زعقت ماريّا ستيبانوفنا وقد تنبّهت للخطر المحدق، اندفعت نحو البروفيسور، شدّته من يده وصرخت به: «اهرب فلاديمير إيباتيتش. اهرب». نهض عن كرسيه المحوري، استقام، استعادت عيناه فجأة لمعانها السابق، اللمعان الذي يذكّر بأيام بيرسيكوف الخوالي، اتخذ إصبعه شكل الخطاف وقال:

– لن أذهب إلى أي مكان، هذا غباء! إنهم غاضبون كالمجانين، لكن ما العمل؟ إذا كانت موسكو قد جنّت بالكامل. إلى أين أذهب. لا تصرخي من فضلك. ما ذنبي أنا بما حصل؟ بانكرات!

نادى: بانكرات، وضغط الزر الكهربائي، كان على ما يبدو يريد من بانكرات أن يمنع تلك المهزلة، التي ما أحبّها يوماً، لكن بانكرات ما عاد قادراً على فعل شيء.

انتهى قرع الأبواب إلى تكسيرها، سُمِعَ أزيز رصاص، وتعالت الصرخات في الممرّات وأصوات الأقدام تدقُّ بلاط المعهد، تكسّر الزجاج. تمسّكت ماريّا ستيبانوفنا بكمٍّ قميص البروفيسور وحاولت أن تسحبه إلى مكان ما، أفلت منها، انتصب بكامل قامته، خرج إلى الممرّ بروب التجارب الأبيض:

– ماذا يحدث؟

انفتح باب الممر، وظهر أولاً رجل عسكري، ذو شارة حمراء ونجمة معلّقة على كُمّه الأيسر. تراجعَ إلى الخلف عن الباب الذي اندفعت منه جمهرة من البشر. أطلق العسكري الرصاص، وعدا مسرعاً من جانب بيرسيكوف وهو يصيحُ به:

– أنقذ نفسك يا بروفيسور، لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً.

استدعت كلماتُهُ ولولة ماريّا ستيبانوفنا. عَبَرَ العسكري بجوار بيرسيكوف الذي وقف كتمثال أبيض، واختفى في عتمة الممرّات الملتوية في الجهة الأخرى. طارت جموع البشر من الأبواب وهي تصيح:

– اضربوه! اقتلوه!

– شريرٌ عالمي.

– أنتَ من أطلق الزواحف!

وجوهٌ مشوّهة، مُسُوخ، ثيابٌ ممزقة تقافزت في الممرّات. أحدهم أطلق عيارات ناريّة، هراوات تهتز في أيدي الكثيرين.

تراجع بيرسيكوف قليلاً إلى الوراء، وسدّ بجسده باب مكتبه، حيث كانت ماريّا ستيبانوفنا تركعُ على ركبتيها فوق بلاط المكتب، فاتحةً ذراعيها على هيئة الصليب... أراد البروفيسور أن يمنع الغوغاء من دخول مكتبه، صرخ متوتراً:

– هذا جنون حقيقي.. أنتم وحوش بريّة كاسرة، ماذا تريدون؟ ارحلوا من هنا.

وختم صرخته الحادة بعبارةٍ معروفة للجميع:

– بانكرات اطردهم من هنا.

لم يكن باستطاعة بانكرات أن يطرد أحداً، كـان مطروحـاً دون حراكٍ في الممـرّ، مركـولاً وممـزّق الثيـاب، وبـرأس محطّـم، وكتـل بشرية جديدة تمرّ بجواره وفوقه، دون أن تعـيره أو تعـير الـشرطة التي تطلق الرصاص في الشارع أي اهتمام.

شخص قصير بساقي قرد معقوفتين، ومعطـف قـصير وممـزّق، تجاوز الجميع وسبقهم إلى بيرسيكوف، هوى بعصاه الغليظة وبكل ما أوتي من قوّة وغباء علـى رأس بيرسـيكوف، تـرنّح البروفيـسور وسقط على جانبه الأيمن، وكانت آخر عبارة قالها:

- بانكرات... بانكرات!

قتلوا ماريّا ستيبانوفنا غير المذنبة في شيء، مزّقوها في المكتب، وحطموا حجرة الاختبـار ذات الـشعاع المُطفأ قطعـاً قطعـاً قطعـاً، كسّروا الأقفاص، والطاولات الزجاجيّة، والعـواكس الـضوئية، ثـمّ داسوا الضفادع. بعد ساعة تقريباً، راحت النار تلتهم المعهد، بينما كانت الجثث مرميّة على جوانبه، وصفوفٌ مـن الجنـود بعتـادهم الكامل ومسدّساتهم الكهربائية يحاصرون المعهد، وسيّارات الإطفاء تضخّ الماء باستخدام مـضخّاتها عـبر النوافـذ الـتي تتـصاعد منهـا ألسنة اللهب.

الفصل الثاني عشر

إله الصقيع في سيارة

ليلة التاسع عشر ـ صباح اليوم العشرين من آب، عام 1928، ضربت البلاد موجة صقيع لم يُسمع بمثلها من قبل، لا من قبل كبار السن ولا من قبل غيرهم، ولم يلاحظ أحدٌ مثيلاً لها في يوم من الأيام. استمرّت يومين كاملين، انخفضت درجة الحرارة بمعدّل ثماني عشرة درجة تحت الصفر. أقفلت موسكو المضطربة نوافذها وأبوابها كلها. فهم السكان بعد ثلاث ليال فقط، أن الصقيع قد أنقذ العاصمة، وما حولها من المناطق الشاسعة التي حلّت الكارثة المخيفة فيها عام 1928.

كانت فرقة الفرسان قد فقدت في ضواحي ماجايسك ثلاثة أرباع عددها، وتراجعت فرقة الفرسان المسلّحة بالغاز، بعد أن عجزت عن وقف زحف تلك الزواحف المقرفة، التي تقدّمت بشكل نصف دائرة، من الغرب والجنوب الغربي، ومن الجنوب، صوب موسكو.

خنق الصقيع الزواحف، لم تستطع تلك القطعان القبيحة أن تتحمّل ثماني عشرة درجة من الصقيع.

في الـ 20 من آب بعد أن انتهت موجة الصقيع، وبعد أن تركت الوحول والرطوبة على الأرض، والندى في الهواء. بعد أن حرقت الخضرة على الأشجار، لم يبقَ من شيء يمكن أن يستحق القتال. انتهت المصيبة، ظلّت الغابات والسهول والمستنقعات ملأى بالبيوض، متعدّدة الألوان وبالرسوم الغريبة، التي لم يشاهد سكان البلاد مثيلاً لها من قبل، تلك التي ظنّها روكك ذو المصير المجهول! وسخاً، وراح يغسلها. إلا أن تلك البيوض لم تعد ضارة على الإطلاق، لقد تحجّر ما في داخلها، ومات إلى الأبد.

بقيت المساحات الشاسعة من الأرض تتعفّن لفترةٍ طويلة، جرّاء تفسّخ جثث التماسيح والثعابين التي لا تُحصى، والتي قدِمَتْ إلى الحياة على هيئتها تلك بسبب شعاعٍ غريب، اكتشفَتْهُ عينان عبقريتان في شارع غيرتسن، لكن تلك البقايا لم تعد قادرة الآن على إيذاء أحد. حسب تلك الكائنات الاستوائيّة، غير القادرة على تحمّل البرودة أن تتفسّخ وتتعفّن الآن.

انتشرت الأمراض والأوبئة جرّاء ما سبق ذكرُهُ طويلاً، وانتشر الجيش زمناً غير قصير، لكنه لم يعد مسلّحاً بالغاز، بل بعتاده الطبيعي وصهاريج الكيروسين والخراطيم لتنظيف الأرض.

انتهت تلك الأعمال ربيع 1929.

فإذا بالأضواء والأنواء تعود لتتراقص في واجهات موسكو ومبانيها، عادت حركة الباصات والتراموايات إلى سابق عهدها، وفوق قبّة كنيسة المسيح تدلّى منجلٌ قمريٌ، كأنّه معلّقٌ بخيط.

بنوا في مكان المعهد ذي الطابقين الذي احترق عام 1928، قصراً جديداً لعلم الحيوان، أدارَهُ الدكتور إيفانوف مساعد البروفيسور السابق بيرسيكوف، الذي لم يعد موجوداً ولم يعد يرفع في وجوه الناس إصبعه ويعقفه كخطّاف، كما أن نقيق الضفادع لم يعد يُسْمَع في ممرّات المعهد.

لفترةٍ طويلة كتب العالم كلّه وتكلّم المتكلّمون عن الشعاع الأحمر وعن كارثة 1928، ثم كسا الضباب اسم البروفيسور فلاديمير إيباتيتش بيرسيكوف، وأطفأه تماماً، كما انطفأ الشعاع الأحمر الذي اكتشفه في ليلةٍ من ليالي نيسان. لم يتمكّنوا من إعادة اكتشاف الشعاع، بالرغم من محاولات ذلك الرجل الأنيق والبروفيسور الجديد بيوتر ستيبانوفيتش إيفانوف، فقد حطّمت جموع الناس الغاضبة حُجرة الاختبار الأولى ليلة مقتل بيرسيكوف، والحجرات الثلاث الأخرى احترقت تماماً في سوفخوز نيكولسك «الشعاع الأحمر»، عشيّة المعركة الأولى بين الزواحف وفرقة الفرسان، وما استطاع أحد أن يصلحها بعد ذلك، كان من المستحيل ترتيب تناسق المرايا والعدسات المختلفة مع زوايا حزم الضوء لتوليد الشعاع، مع كل محاولات إيفانوف الجادة. وعلى ما يبدو فقد كان ثمّة حاجة لشيءٍ ما خاص جداً غير المعروفة، والإنسان الوحيد الذي كان يملك ذلك الشيء في العالم هو: البروفيسور فلاديمير إيباتيتش بيرسيكوف... الراحل.



الفهرس

"كانت الحديقة الزجاجية تعج بالحياة. كان منظر أرضها أشبه بعصيدة من الديدان: خليط هائل من مخلوقات تنغل، يزحف بعضها فوق بعض، تتكاثر وتقتتل وتفحّ.. ومصباح كروي يعمل بكل طاقته، يصدر ضوءاً شاحباً، ويتدلى منه ثعبان مرقّط راح يهز رأسه كرقاص الساعة.

وسط ذلك، ميّز الرجلان المسمّران كمية من البيض في الزوايا يَغطيها التراب، وطيراً ضخماً غريباً، طويل الساقين، يستلقي دون حراك عند إحدى الحجرات، وجثة إنسان في ثياب رصاصية اللون، ملقاة عند الباب، وإلى جوارها بندقية".

ليس هذا مشهداً من مشاهد الخيال العلمي، بل واقعة فجّرها الشعاع الأحمر الذي اكتشفه عالم في علم الحيوان، لكن البيروقراطية والجهالة والشعبوية والشمولية حولت الاكتشاف إلى كارثة عصفت بالعالم والبشر والطبيعة، هي ما رسمه ميخائيل بولغاكوف في رواية (البيوض القاتلة)، فتجلت فيها عبقرية الكاتب وروحه الانتقادية التي عرفت بها رواياته جميعاً.

تصميم الغلاف: ناظم حمدان



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339